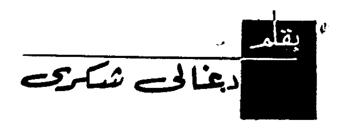


أمريكا والحرب الفكرية



وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

إلى مساء ٩ يونيو ١٩٦٧

أعمق لحظات الوجود

العربي المعاصر

غالي شكري

أمريكا هى العدو

مقدمة

نعم امريكا اقوى دول العالم .. هذه احدى « الاوليات » التى يتلقاها ابناؤنا فى المرحلة الابتدائية ، وهى أيضا احدى « الحقائق » التى يركز عليها بعض الكتاب فى بلادنا اليوم . ولكن الفرق بين التلميذ الصغير الذى يدرس جغرافيا الولايات المتحدة ، والكاتب الذى يفكر فى الوضع السياسى لامريكا المعاصرة ، هو الفرق الذى يحدد فى وضوح معنى « القوة » الامريكية . فاذا كانت الموارد الطبيعية لاحدى البلدان تمنحها ارفع درجات التفوق الاقتصادى فى العالم ، وصفنا هذا البلد بانه « أقوى البلدان » بمعنى انه اغناها . من هنا يمكن اعتبار الولايات المتحدة اقوى بلاد العالم ، ولكننا فى نفس الوقت نضع بضعة تحفظات . اولها ان الثراء الطبيعى ليس هو المصدر الوحيد للقوة الامريكية ، وانما شرايين الاحتكارات الامريكية التى تمتد الى « خارج » الولايات المتحدة حيث تنهب ثروات الشعوب المتخلفة وتغذى بها سادة المال « داخل » امريكا ، هى المصدر

الثانى والهام للفنى الامريكى . وهو المصدر الذى يدعوها فى كثير من الاحيان الى استخدام السـلاح مباشرة ، او الى اسـتخدام ادوات وكالةالمخابرات المركزية فى قلب الحكومات الوطنية وتخريب الانظمة التقدمية . فالقول بان امريكا اقوى الدول « اقتصاديا » يحتاج ــ من هذه الزاوية ــ الى تعديل يفرضه اعتماد الاقتصاد الامريكى على بنائه الاستعمارى لا على موارده الذاتية فحسب . هناك ايضـا تحفظ آخر يمليه علينا نظام توزيع الثروة الامريكية داخل حدود الولايات المتحدة . فبالرغم من ارتفاع مسـتوى المعيشـة الامريكية ، الا ان الاعـداد الهائلة من العمال العاطلين والازدياد المروع لنسبة ارتكاب الجرائم واشتعال ثورات الزنوج ، يؤكد ان الثراء الامريكى هو ثراء حفنة الاحتكاريين الكبار والطبقة المتوسطة خاصة بعض افرادها منالعلماء والمثقفين الذين يصوغون « النظام الامريكى » فكرا وايديولوجية.اما غالبية الشعب الامريكى وخاصة ملونوه فانه يعانى المزيد من الافقار مهما ازدانت بيوت البعض بالثلاجة والتلفزيون ، ومهما حصل بعضـهم على العربة الخاصة. فلاشك ان الحياة التى يعيشها هذا البعض «بالتقسيط»، حياة ترتبط تفاصيلها بشركات الاحتكار الامريكى التى تحصل مع الاقساط الشهرية للمواطن العادى على انفاسه التى تختنق يوم ان يدلى بصوته فى معركة الانتخاب . معنى هذا ان الثراء الامريكى الحقيقى هو ثراء الفئات والشرائح التى تملك « الحرية » فى القول والفعل . ومن ثم فاننـا حين نقول بان امريكا هى اقوى الدول « اقتصاديا » يحتاج الامر الى اعادة نظر يفرضها اقتصار الغنى الامريكى على اجزاء بعينها فى المجتمع هى قمته العلوية ، دون بقية البناء الهرمى الكبير الذى يصل الى السفح ، الى القاعدة العريضة من العمال والزنوج والبرجوازية الصغيرة .

هذان التحفظان الرئيسيان على القوة الامريكية بمعناها الاقتصادى، يعنيان انه حين تشتد حركات التحرر الوطنى ضراوة فى مختلف بقاع العالم ، يتقلص احد المصادر الهامة فى تغذية الثراء الامريكى ، وهو نهب ثروات الشعوب عن طريق الاستعمار القديم والجديد . كما يعنيان انه حين تشتد وطأة التناقضات الداخليةفى المجتمع حتى يصل أوارها الى حدود الحرب الاهلية كما اعلنت ثورة الزنوج اخيرا ، فان هذا يهدد الثراء الامريكى المحدود بين اسوار الاحتكاريين وأتباعهم بالتبدد والضياع . أمريكا قوية اذن بالمعنى الاقتصادى، بل هى اقوى دول العالم اذ أشاء البعض،ولكن دون ان ننسى هذه التحفظات التى تفرض على ضميرنا الفكرى ان يعيد النظر فى صياغة « القوة الامريكية » وأن يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا موضوعيا الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك مع حقيقة الامر الواقع .

من الممكن ان يقال للمرة الثانية ، ان امريكا أقوى دول العالم ، عسكريا . وهذا ، ايضا ، صحيح . فلا ريب ان الاسطول السادس والسابع ومخزون البنتاجون من الاسلحة النووية ، يمنحها اعلى درجات التفوق العسكرى فى العالم الحديث . ولكن هذا « التفوق » مشروط بتحفظين آخرين : أولهما انه تفوق فى « الكم » من زاوية رئيسية ، وثانيهما انه تفوق فى « أساليب استخدام السلاح » ان جاز التعبير عن توظيف العسكرية الامريكية فى قمع ثورات الشعوب «خارج» الولايات المتحدة ، وقهر النضال العادل للزنوج والعاملين من ابناء الولايات المتحدة « داخلها » ، وتصبح امريكا بهذا المعنى العسكرى المحض اقوى دول العالم ، لانها تملك حصانة « المغامر » فى خروجه على القانون من ناحية ، وفى حرصه على المفاجأة والمبادرة من الناحية الأخرى . فلو اننا اخذنا مثلا

مضادا لنموذج الولايات المتحدة كالاتحاد السوفيتى ، فاننا نجده
لا يملك سوى ربع مخزون الولايات المتحدة من الاسلحة النووية.
ولكن هذا وحده نصف الحقيقة . النصف الآخـر يقول ان النظام
الاشتراكى الذى يمثله الإتحاد السوفيتى والصين وكوبا وأوروبا
الشرقية ، يغذى حركات التحرر الوطنى المناوئة للاستعمار القديم
والجديد بما يضاعف من نشاطها الاقتصادى المستقل ونضالهـــا
السياسى واحيانا العسكرى ضد الولايات المتحدة . هذه القطاعات
العريضة من شعوب وحكومات آسيا وافريقيـــا وامريكا اللاتينية
تمثل « القواعد الثابتة » لمعسكر القوى المعادية للاستعمار ، وهى
القواعد التى قد ينخفض مستواها العسكرى والتكنيكى عن مستوى
القواعد الأمريكية ، ولكنها تتميز فى نفس الوقت بالثبات وصلابة
الدفاع عن الحق المشروع .. وهو فرق جوهرى بين الروح المعنوية
التى يتمتع بها المناضل الفيتنامى فى جبهة التحرير وبين هـذه
الروح عند الجنـدى الأمريكى . حين نقول ان أمريكا أقوى دول
العالم عسكريا ، يجب أن نضع فى اعتبارنا هذه الحقائق مجتمعة ،
وهى أن الاتحاد السوفيتى « يناطح » الولايات المتحدة نوويا ، ولكن
من حيث الكيف لا من حيث الكم . وهى أيضا القطاع العريض من
الشعوب التى تمثل فى مجموعها قاعدة ضخمة ضد الاستعمار ،
خاصة اذا كانت احدى القلاع المناضلة ــ كالصين ــ قطعت شوطا
يعترف به أعداؤها فى التسليح النووى . ما يغلف القوة العسكرية
الأمريكية بهالة اسطورية هو الوجه المغامر الذى يخرج بهـا عن
دائرة القوانين الدولية والالتزام بميثاق الأمم المتحدة ، وهو الوجه
الذى ينطلق بها الى آفاق المبادرة والمفاجآت التى تخصصت وكالة
المخابرات المركزية فى صناعتها . وهى المفاجآت التى اعتمدت بغير
شك على تناقضات المعســكر الاشــتراكى الداخلية ، وتناقضات
حركات التحرر الوطنى الداخلية ، والتناقضات بين المعســـكر

الاشتراكى وحركات التحرر . وهى المفاجآت التى اعتمدت على ما يمكن تسميته بالابتزاز النووى حين التزم الاتحاد السوفيتى بسياسة التعايش السلمى بعد تضحيات هائلة بلغت عشرين مليونا من القتلى السوفيت فى اتون الحرب العالمية الثانية .. فالتطور الداخلى للاتحاد السوفيتى والطبيعة الخاصة للنظام الاشتراكى جميعه لا يتيح الفرصة للمغامرة العسكرية الواسعة التى يبلغ اتساعها فناء العالم باسره،كما لا يتيح الفرصة للمبادرات الجنونيه والمفاجآت. هذا لا ينفى أن هناك أخطاء فادحة تورطت فيها القوى المعادية للاستعمار ، ولولا هذه الاخطاء لكان من الممكن التصدى للمغامر القوى والتيقظ لمبادراته ورد مفاجآته ... ومن المؤسف حقا أن تشترك الدولتان الاشتراكيتان الكبريان فى خطأ واحد ، هو ماتعبر عنه نشرات السوفييت التى تبدأ بديباجة تقليدية تحصى بالأرقام عدد الدول التى أستقلت حديثا حتى ليظن المرء أن الاستعمار قد انتهى تماما ، وهو أيضا ما تعبر عنه الصين فى قول قادتها ان الاستعماريين نمور من ورق . أمريكا قوية لا ريب فى ذلك ، بل هى أقوى دول العالم عسكريا اذا شاء البعض — لسبب أو لآخر — استخدام هذا التعبير،على أن نتذكر دوما هذه التحفظات التى تحيط القوة العسكرية الامريكية بشبكة من قوة المعسكر الاشتراكى المسلحة ، ونضال الشعوب ، والصراع الداخلى فى المجتمع الامريكى الذى بلغ أوجه فى ثورة الزنوج الأخيرة . علينا أن نتذكر دوما هذه التحفظات لانها — موضوعيا — لا تمنح الرجحان المطلق لكفة القوة الامريكية فى موازين الحرب والسلام . وعلينا أن نتذكر دوما هذه التحفظات لانها تفرض على ضميرنا الفكرى أن يعيد النظر فى صياغة « القوة الامريكية » وأن يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك مع حقيقة الامر الواقع .

بقيت القوة السـياسية للولايات المتحدة ، فيقـال ـ للمرة الثالثة ـ ان أمريكا أقوى دول العالم سياسيا ٠ وهذا ما لا يجادل فيه أحد ٠٠ فالدبلوماسية الامريكية تستطيع أن تفرض الرأى على المنظمات الدولية ، كمـا تستطيع أن تفرض الشروط على حكومات بعض الدول الصغيرة والكبيرة ٠ وهذا يمنحها أكبر درجات التفوق السياسى فى العالم المعاصر٠ غير ان هذا التفوق مرهون بجملة أشياء أهمها « ثبات » الوضع السياسى لحكومات الدول التى تقبل الضغط الامريكى ٠ هذا « الثبات » الذى يحتمل الشـــك فى كل لحظة توجه فيها احدى الضربات الى السياسة الامريكية ، سواء حين يثور شعب من الشعوب ضد حكوماته العميلة أو المتهادنة مع الاستعمار ، أو حين تقف دولة كفرنسـا الديجولية موقفـا مسـتقلا عن موقف الولايات المتحدة ازاء بعض المشكلات الرئيسية المعاصرة مثل حرب فيتنام وحلف الاطلنطى وأزمة الشرق الاوسط ، أو حين يتم مصرع رئيس جمهورية الولايات المتحدة على مرأى من البوليس الامريكى ، أو حين تستخدم الطائرات والدبابات فى ضرب ثورة الزنوج. هذه الضربات التى تتوالى ضد السياسة الامريكية لها آثارها بغير شك على الحركة الدبلوماسية للولايات المتحدة ، بالاخفاق حينا والشلل الجزئى أحيانا ، والشلل التام أحيانا أخرى ولعل حركة سير الشعوب المنظمة فى خط مضاد للسياسة الامريكية منذ مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ الى بقية مؤتمرات التضامن الآفرو اسيوى الى مؤتمر القارات الثلاث ، لعل هذه الحركة المنظمة بكل ما تجسده من انتصارات فعالة لمعسـكر التحرر الوطنى والاشـتراكية ، هى التفسـير الموضـوعى لتشنجات الاسـتعمار الامريكى التى عبرت عنها وكالة المخـابرات المركزية فى كل ما دبرته من اغتيالات فردية لبعض الزعماء الثوريين من أمثال المهـدى بن بركة وبياتريس لومومبـا ، وكل ما دبرته من انقلابات فى آسيا وافريقيا كهذا الذى حدث فى غانا واندونسيا

بل وفى أوربا كهذا الذى حدث فى اليونان . وأخيرا هذا العدوان الذى دبرته بخبث ودهاء شــديدين ضد البلاد العربيــة . وهنــا ـ بالتحديد ـ برزت أمريكا كأقوى دول العالم سياسيا حين تمكنت ضغوطها الرهيبة فى الامم المتحدة أن تمنع المجتمع الدولى من ادانة اسرائيل وانسحابها من الاراضى التى احتلتها . ان هذا الموقف وحده يوضح معنى أن تكون أمريكا أقوى دول العالم سياسيا . ولقد كان مدهشا للبعض ومذهلا للبعض الآخر أن تتخذ دول افريقية معينة موقف المعارضة للدول العربية فى حقها المشروع بسحب قوات الاحتلال الاسرائيــلى من مواقع عدوان ٥ يونيو . الا أن الدهشــة سرعان ما تزول اذا عدنا الى ظاهرة الاستعمار الجديد، وهى الظاهرة التى أبدعتها القريحة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية حين احتلت الولايات المتحدة مركز القيادة الاستعمارية فى العالم على اثر الخسائر والانهيارات التى منيت بها مراكز الاستعمار التقليدية فى بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال . وهى الظاهرة التى تتحفظ فى استخدام الشكل العســكرى للاســتعمار مكتفية فى الظروف العادية باستخدام الشكل الاقتصادى على أوسع نطاق ممكن ، وذلك بربط الدول الحديثة الاستقلال بعجلة الاحتكارات الأمريكية التى تتحكم بدورها فى مقدرات شعوب هذه الدول بتوجيه اقتصادها وجهة التابع للمتبوع وبالتالى ، ليس غريبا أن تتحكم فيها سياسيا وهى تدلى بأصواتها ـ فى سرية تامة ـ فى صناديق الانتخــاب بالمنظمــة الدوليــة . امريــكا أقــوى دول العــالم ســياسيا اذن ، بمعنى أنهــا تســتطيع عن طــريق القهــر الاقتصــادى ـ أن تضــغط ســياسيا على مجموعة الــدول التى لم تتمكن بعد من الحصول على استقلالها الاقتصادى، ولم تعرف بعد كيف تشق طريقها الى التنمية ، الدول التى لم تتمكن ـ لاسباب عديدة ـ من اكتشــاف همزة الوصل بين الثورة الوطنيــة والثورة الاجتماعية . ولــكن العالم الثالث ـ بالرغم من كل ما وجه ويوجه

اليه من ضربات ــ هو الظاهرة المقابلة لظاهرة الاستعمار الجديد ، الظاهرة التى حاولت وتحاول أن تجد صياغة عصرية لالتحام الثورة الوطنية بالثورة الاجتماعية فى الطريق الطويل نحو الاشتراكية ٠ فاذا كانت السياسة الامريكية قد نجحت حينا فى السيطرة على مخططات بعض الدول المتحررة حديثا ، فانها لم تنجح مع البعض الآخر ولن تنجح فى كل الاوقات ٠ ومن ناحية أخرى فان السياسة الامريكية تحرز بغير شك جولات عديدة رابحة عن طريق استغلال الصراع الصينى السوفيتى الذى شارك فى اضعاف حركة النضال الثورى للشعوب ، ولكن الابتزاز النووى الامريكى سرعان ما يدفع كلا الفريقين الى المواجهة المشتركة للتحدى الاستعمارى خاصة وان الصين ــ بعد أمد يقصر أو يطول ــ ستكون قوة عسكرية وسياسية ترتفع الى مستوى القطب الموجه سياسيا لحركة المجتمع الدولى ٠ هذه التحفظات جميعها تتطلب منا التريث قليلا ونحن نمنح أمريكا هذا اللقب المسمى بأنها أقوى دول العالم سياسيا ٠ كما تتطلب من ضميرنا الفكرى أن يعيد النظر فى صياغة « القوة الامريكية » وأن يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا ــموضوعياــ الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك مع حقيقة الامر الواقع ٠

ويمكن أن يقال أخيرا ان أمريكا أقوى الدول حضاريا . تشهد بذلك آيات تقدمها العلمى والفنى . وهذا ما لا ينكره أحد ، فالتقدم التكنولوجى يصل الى ذروته العليا فى عالم اليوم بالولايات المتحدة الامريكية ٠ ولكن مقياس الحضارة الانسانية لم يكن فى يوم من الايام هو التقدم التكنولوجى وانما ظل المقياس دائما هو «الانسان» مدى وعيه بذاته والكون المحيط به ، ومدى قدرته على تغيير ذاته والكون المحيط به ٠ وظل منسوب الوعى وارادة التغيير بمثابة العمود الفقرى للحضارة عبر تاريخ البشرية الطويل ٠ ولا أعتقد أن

الامريكيين أنفسهم يزعمون أنهم شعب عريق الحضارة · وانما هم قوم وافدون الى هـذه الارض الغنية بطبيعتها منذ فترة قصـيرة فى تاريخ الامم لا تتيح لهم أن يصنعوا تراثا أو جذورا · ولقـد عمدت علاقتهم بالارض الجديدة بالدم ، ودشنت بالعنف · من هنـا كانت « حضارتهم » فى نشأتهـا صراعا دمويا يخلق أول ما يخلق معنى السيادة والعبودية·· وهو المعنى الذى يوجز « الحضارة الامريكية » فى كلمتين·· فليس ثمة تناقض بين أن تكون أمريكا «أرقى» الدول تكنولوجيا ، وبين أن تكون « احط » الدول فكريا واخلاقيا · فهى معقل الاضطهاد العنصرى بسبب اللون ، وهى قلعة الجريمة والجنون، وهى رائدة الاستعمار الجديد.معنى ذلك أن غياب التراثالحضارى من أعماق الوجدان الامريكى ، يدفعه الى السـلوك وفق التـكوين القريب الابعاد الذى يرسب على السطح فى شكل طبقة حضارية رقيقة هشـة ، هى الطبقـة التى تحتوى على عناصر القتـال والغزو والبطولة الفردية والتفوق العنصرى ، وهى الطبقـة التى لا يمـلك الامريكى المعاصر غيرها ، فهو يستمد منها قيمه ومثله واخلاقياته · وهو اذا أخلص فى الاجتهاد والبحث عما هو أعمق من هذه الطبقة الرقيقـة الهشـة لن يجد سـوى الفراغ المرعب ، أو الصراع الآخر الدامى بين الـكاثوليكية والبروتستانتية الذى ارغمه ضمن عوامل أخرى على الفرار والغزو· أمريكا لذلك تهمل عن عمد الوعى بالذات، لأن هذا الوعى يقودها الىمجاهل ومتاهات بغيربوصلة هادية أو نور خافت.هى تخشى الوعى بذاتها، لأنها لا تملك ذاتا حضارية بالمعنى العميق الشامل · وهى لنفس الاسباب تخشى التغيير ، هى لا ترى الانسـان ولا الكون فى حالة حركة أو صيرورة أو تحول،وانما تراهما فى حالة سكون قدرى شبيه بالموت ، أو بالحياة كما عانقتها لاول مرة ·· ومن هنـا كانت الذات الامريكية المعاصرة هى امتـداد « كمى » للذات الامريكية منذ قرنين من الزمان ، الذات اللاهثة وراء الكنز

المجهول ، الذات التى تعيش على جثث الآخرين • واذا كانت أمريكا غير قادرة على تغيير ذاتهـا ، فماذا اذن بشأن الـكون ، وهو حقيقة موضوعية مستقلة عن ارادتها ؟ لقد تطورت بغير شك علاقة أمريكا بالعالم المحيط بها ، لا لشيء الا لأنها لم تولد منذ البداية على هذه الدرجة من القوة التى تواجه بها العالم اليوم • تطورت علاقتها بالعالم دون أن يكون هذا انعكاسا لتطور تفكيرها الخاص • هذا التفكير فى جوهره لم يتغـير ، وانما الذى كان يتغير هو العـالم من ناحية و « قوتها » من الناحية الاخرى ، هكذا نستطيع أن نفسر لماذا كانت أمريكا فىوقت من الاوقات احدى الدول المتحالفة ضدالفاشية والنازية • ثم تحولت فيما بعد الى أمريكا المـكارثية فى الداخل ، وأمريكا فيتنام فى الخارج• أى أننا نستطيع أن نفسر كيف«تطورت» البـلد التى سبق لهـا أن ناضلت من أجل الديموقراطيـة الى أن أصبحت بلدا قائدا للظاهرة النازية الجديدة، ظاهرة الحرب العنصرية فى الداخل ، والحـروب الامبراطورية فى الخـارج • أن أمريـكا – حضاريا – هى اعتى الامبراطوريات التى عرفها التاريخ منذ سقوط الامبراطورية الرومانية فى التاريخ القديم ، وهزيمة بونابرت فى التاريخ الحديث • ومعنى هـذا أن التقدم التكنولوجى المذهل الذى تتمتع به الولايات المتحـدة يمتنع عن أن يكون عنصرا حضاريا فى البناء الامريكى،لانه لا يسـهم فى عملية الوعى أو فى ارادة التغيير ، وانما يوظف فى اكثر جوانب الحياة الانسـانية سلبا وتخلفا ، وهو دمار الجنس البشرى، فالوعى والتغيير عمليتان اجتماعيتان تهدفان الى خلق الحضارة بمعناها الانسانى الرحب،والتقدم التكنولوجى وحده يهدف الى الحضارة بمعناها الآلى المعملى الضيق. والتقدم التكنولوجى فى ظل الاحتـــكارات الامبريالية لرءوس الأمــوال الامريكية هو مزيد من التخلف الحضارى للشعوب المتخلفة ، وهو يشـكل عرقلة حقيقية فى وجه التقـدم الحضارى لامريكا نفسها •

فالنظام الاجتماعي المتخلف موضوعيا -وهو الرأسمالية- هو النظام السائد والقائد للتكنولوجيا الامريكية · واذا كانت الرأسمالية عند ظهورها تمثل « ثورة حضارية شاملة » فان الولايات المتحدة لم يكن لها النصيب الاوفر فى صنع هذه الثورة ، لقد كانت المانيا وانجلترا وفرنسا - أى أوربا - هى الصانعة الحقيقية للثورة البرجوازية · ولم يبق لامريكا حق التفاخر الحضارى فى أى عصر من العصور لانها لم تشارك عمليا فى المراحل الثورية لبناء الحضارة· أمريكا اذن أقوى الدول حضاريا ، بالمعنى التكنولوجى وحده ، وهو المعنى الذى يفرغ كلمة الحضارة من مضمونها الايجابى وجوهرها الانسانى على السواء· وهو المعنى الذى يدعو ضميرنا الفكرى أن يعيد النظر فى صياغة « القوة الامريكية » وان يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا -موضوعيا- الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك مع حقيقة الامر الواقع ·

فاذا لم تكن أمريكا « أقوى دول العالم » اقتصاديا وعسكريا وسياسيا وحضاريا الا فى حدود هذه المجموعة الهائلة من التحفظات، فان هذا يعنى شيئا واحدا هو أنها ليست قوية « ذاتيا » وانما هى تقوى بالوقود الخارجى الذى يجعل من فيتنام سوقا للسلاح تنعش مصانع الاحتكاريين مهما بحت أصوات المثقفين بأن هذه الحرب هى عار العصر، ومهما امتنع الشباب الامريكى عن التجنيد لانه لايريد أن يموت بهذا الثمن البخس . ولأن الولايات المتحدة قبل غيرها- تعرف جيدا « المصدر الحقيقى » لقوتها و « المعنى الحقيقى » لهذه القوة ، فانها تلجأ احيانا كثيرة الى اسلوب « متحضر » فى اقناع الآخرين « بفلسفة » نظامها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، بل والعسكرى . هذا الاسلوب المتحضر هو «الفكر» . فلأن الولايات المتحدة - ومعها الغرب الاستعمارى بأكمله - تعانى افلاسا فكريا مروعا ، ولان الذين يصفونها بأقوى دولة فى العالم ، لا يجدون

الشجاعة الكافية التى تجعلهم يضيفون الى صفات قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية قوى الفكر ، لذلك كله ، فانها تكرس مجهودا هائلا لصناعة الفكر الامريكى وتصديره الى مختلف بلدان العالم ، خاصة تلكالتى عرفت طعم الحرية حديثا، وتلك التى انزاح عن كاهلها الاستعمار التقليدى، وتلك التى تتوق الىالتحرر وتناضل من أجله ..

هذه الصناعة الفكرية لاتقل أهمية وخطورة عنمصانع السلاح التى تزدهر كلما اشتد لهيبالحرب فى فيتنام، كذلك صناعة الفكر الامريكى تزداد ازدهارا كلما اشتد فى بلاد كبلادنا لهيبالجدل حول معنى الديموقراطية والاشتراكية والتطور الاجتماعى والاستقلال السياسى والحرية الاقتصادية ..الى غير ذلك من قضايا تفرضها علينا طبيعة المسيرة الوطنية والاجتماعية التى نحشد لها كل قوانا ..وتحشد لها «القوة الامريكية» كل أسلحتها الفكرية . وكما أن الولايات المتحدة لم تشارك فى صنع الثورة البرجوازية ، فانها لم تشارك أيضا فى صياغة هذه الثورة فكريا .. ويكاد المرء لايجد مذهبا له قيمته فى مجال الفكر تستطيع أمريكا أن تتقدم به الى حلبةالفكر الانسانىالعالمى. فباستثناء البراجماتية فى ميدانالفلسفة التى اتى بها وليم جيمس ، وباستثناء المدرسة الارتقائية فى ميدان التربية التى اتى بها جون ديوى ، لن نجد فى صفحة الفكر الامريكى ما يستحق الذكر سوى تجارب الادب والفن التى تلطخ وجه أمريكا بالعار.. حتى اذا اشتدتوطأة العار تمكن الدولار منشراء شتاينبك ورايت وفاست وغيرهم من معسكر « الانسانية » الى معسكر « الحرب فى فيتنام » و « الحرب العنصرية » وغيرها من حروب الامبراطورية الجديدة . ليس هناك اذن من يقول ان أمريكا أقوى دول العالم « فكريا » ، ومع هذا فسادتها وساستها يتحرقون الى «تبرير فكرى»

منطقى ومعقـول يقدمونه الى العـــالم ، انهم فى أمس الحـــاجة الى « أيديولوجية » «تنظر» لاستعمارهم الجديد. ولما كانت الرأسمالية العالمية كلها تعانى افلاسا ايديولوجيا حادا ينعكس على آداب أوربا الغربية فيمـا تنادى به من يأس وعبث واختنـاق ولا معقول ، فان الولايات المتحدة قائدة هذه الرأسمالية تكتشف فجأة انها فى مأزق حرج لان قيادتها السياسية والعسـكرية والاقتصادية لا ترتكز على سند فكرى « قوى » يناطح « قوتها » التى تزهى بها على العالم . ولذلك فهى تنفق بسخاء وكالة المخابرات المركزية على هذا الجانب الخطير من جوانب حياتها ، فتفتح الجامعات والمعاهد العليا والمجلات الثقافيةوالصحف وقاعاتالمحاضرات والمعابد الدينية داخل أمريكا وخارجها ، وتحت اسماء علنية وأخرى سرية ، وفى ظل الرعاية الامريكية مباشرة ، وفى ظل غيرها من الدول التابعة بصورة غير مباشرة . وتسلك أمريكا « الفـكرية » بين الشعوب الاخرى سـبلا شديدة الالتواء والتعقيد حتى تبدو فى مظهر حامى حمى حرية الفكر والتعبير .. وتحت سـتار « حرية البحـث العلمى » و « التجربة الحرة » و « ارادة الخلق والكشف » تخفى أمريكا عجزها الايديولوجى وانعدام قدرتها على اقناع الآخرين بالحسنى ، أى بالفكر الخالص . فالبرجماتية نفسها وهى تجعل من «المنفعة» غايتها ، انما تؤكد خلو «الفلسفة» الامريكية من اى غاية انسانية أشمل من المصلحة الاستعمارية العـابرة للولايات المتحدة . وانه لمن سوء حظ الفـكر الامريكى حقا ، أن تتحقق له وسائل النشاط الوافر دون أن تتحقق له أية أهدافعليا لهذا النشاط، فقد وفد ازدهاره الشكلى (أوحركة صناعته وتصديره بمعنى ادق)فى مرحلة تاريخية محددة فى حياة الرأسمالية العالمية ، هى مرحلة « الأفول » و « الخاتمة » مهما تشبث الاستعمار بمناطق النفوذ ، ومهما تشنجت أدواته الجهنمية فى ضرب

الشعوب . واذا كان يحق لبلد مثل فرنسا أو انجلترا أن تتصور ان لديها « بقايا ايديولوجية» من رصيدها الحضارى العريق، ومن مشاركتها فى صنع الثورة البرجوازية الديموقراطية ، فان الولايات المتحدة كما قلت، لايحق لها ان تفخر بذلك الرصيد السطحى القريب الابعاد الذى تشكل من طبقة حضارية رقيقة وهشة ،مكوناتها الرئيسية هى الفرار من وجه الاضطهاد المذهبى والغزو الدموى للارض الجديدة . هذه الطبقة الراسخة فى الضمير الامريكى بالرغم من رقتها وهشاشتها ، هى التى تمده سياسيا وعسكريا واقتصاديا بوقود «الصراع الدموى» محليا وعالميا ، ولكنها فى مجال الفكر ـ وهنا التناقض الحاد ـ لن تمد أمريكا بما تستطيع أن تتباهى به على العالم، أو ما تستطيع أن تقنع به العالم . على أن هذه الطبقة الحضارية الدامية الهمت أجهزة الفكر الامريكى « الشكل » دون المضمون .. الهمتها وسائل الحرب والغزو والصراع الدموى . لذلك كانت « الحرب الفكرية » خطا موازيا للحرب العسكرية المسلحة التى تشنها الولايات المتحدة فى مختلف بقاع العالم . وقد استلهمت هذه الحرب ـ من حيث المضمون ـ ظاهرة الاستعمار الجديد فى التخفى والالتواء والتستر .. أى فى ربط مقدرات الشعوب النامية بعجلة الامبراطورية الامريكية ، دون تدخل سافر يدعو الى الاستفزاز .

والحديث الذى يدور هذه الايام حول « القوة الامريكية » انما هو يثمر فى طرف من أطرافه ثمار الحرب الفكرية التى شنتها الولايات المتحدة الامريكية على بلادنا طيلة السنوات الماضية. يثمر «الجزع» من « أقوى دولة فى العالم » لدرجة اليأس من ضرورة النضال ، بالرغم من أن هذه « القوة » قد نالت ضربات متوالية على طول مراحل نموها ، وبالرغم من أن تعبير «أقوى دولة فى العالم» لايصلح موضوعيا للتعبير عن حقيقة أمريكا الاستعمارية . ويثمر القول بأن

عدونا هو « اسرائيـل » أولا وأخيرا ، وانه لولا مسـاندة الولايات المتحدة لاسرائيل لكنا أصدقاء لامريكا « نصيرة الشعوب والحرية » ويضيفون «فيما مضى» من قبيل التحفظ الساذج ٠ هذا على الرغم من أن الدور الذى لعبته أمريكا فى العدوان الاسرائيلى لا يختلف الا من حيث المظهر ــوهو شديد الخبث والدهاءــ عن أى عدوان أو انقلاب دبرته وكالة المخابرات المركزية فى أى بلد آخر من بلاد العـالم . وبالرغم من أن لاسرائيل وجودها الذاتى المستقل ــ الذى يجب أن نعمل له حسابا دقيقا ــ الا أن هذا لا يتعارض مع الوجود الامريكى داخل اسرائيل للدرجة التى تحولت بها الى ترسانة عسكرية أمريكية. ويثمر القول بأن الصهيونية هى التى تتحكم فى سـياسة الولايات المتحدة ، والادق أن يقال العكس، وهو أن الولايات المتحدة هى التى تستغل الحركة الصهيونية لمصلحتها، فالعنصرية ــوهى عماد الحركة الصهيونية ــ هى أيضا العمود الفقرى الراهن للأستعمار الامريكى داخل حدود بلاده وخارجها ٠ وتثمر القول باعادة النظر فى جبهتنا الداخلية على ضوء ما يسمونه الآن ــ والآن فقط ــ بسيادة القانون٠ ومن يتابع العناوين الرئيسية فى صحفنا اليوم والمناقشات الدائرة حول الديموقراطية على وجه خاص ، يشعر حتى النخاع بأن الحرب الفكرية الامريكية قد اثمرت ، ولا جدوى على الاطلاق من انكار ذلك ٠ فقد كرست أمريكا لهـذه الحرب جهودا هائلة لا تقـل عن جهودها العسكرية فى أحيان كثيرة ٠ بل لان « قوتها الفكرية » موضع شبهة حتى من أصدقائهـا ، فان حربهـا الفكرية كانت أكثر ضراوة من حروبها العسـكرية فى بعض الاحيان ٠ يكفى أن خبثهـا ودهاءها الشديدين فى العـدوان الاسرائيلى الأخير ، كان تاليـا بزمن طويل لخبثها الأكبر ودهائها الاعظم فى عدوانها الفكرى على طول جبهة العالم الثالث بشكل عام ، والمنطقة العربية بشكل خاص ٠ على أنه بالرغم من ضراوة الحرب الفكرية التى شنتها وتشنها أمريكا ضد الشعوب ،

فانهـا تكاد تقتصر على ضراوة « الشـكل » الذى يتخذ من الصراع الدموى مثـلا يهتدى به · أما المضمون الـكسيح الذى لا يقف على قدمين فهو الفكر الامريكى المفلس الذى يحتاج كثيرا الى ما يسنده ·· من القوات الامريكية المسلحة · ولعلنا نلاحظ انعكاسات هـذا الفكر على المناقشات الدائرة الآن ، فنلاحظ أن ثمـاره التى اثمرها ـ بضراوة الحرب التى أعلنها خبث وسائلها والدهاء فى تنفيذها ـ جاءت تعبيرا موضوعيا أمينا عن بنائه المتهالك الذى لا يقيمه المزيد من الترميمات · فهو ليس الا فتات متناثرة · فكرة من هنا وفكرة من هناك ، لانقاذ ما يمكن انقاذه من جدران البيت الآيل للسقوط · وهذه تماما صورة الاتجاه الفكرى الذى ينطلق فى بلادنا بعد النكسة الاخيرة ، بقصد الترميم : فكرة من هنا وفكرة من هنـاك حتى يظل البناء واقفا على قدميه ·· أى على ما هو عليه ·

الفصل
الأول

استراتيجية الاستعمار الجديد ضد الثقافة العربية

اذا كانت الظاهرة الاقتصادية والسياسية للاستعمار الجديد هى «تبعية» الدول الحديثةالاستقلال ودورانها فى فلك الامبريالية، فان المؤسسات الفكرية والثقافية للاستعمار الجديد هى الاجهزة التنفيذية المتخصصة فى الترويج لأيديولوجية التبعية والدوران فى فلك الامبريالية . وهى أجهزة تختلف عن مؤسسات الاستعمار القديم الدعائية ، شكلا ومضمونا . ولا ينفى ذلك انها قد أفادت من التراث الاستعمارى فى فن الدعاية ، ولا ينفى كذلك أن بعض هذه المؤسسات قد ولد فى أحضان الاجهزة القديمة ، فهى امتداد لها وان تجاوزتها الى الآفاق الجديدة للاستعمار الجديد .

فبعثات التبشير الدينى وارساليات المعاهد والمستشفيات الاجنبية ، كلها « أشكال » للدعاية الغربية عرفت طريقها الى العالم العربى منذ الحملة الفرنسية وتوطدت اركانها فى مصر بعد الاحتلال البريطانى . فكانت «الكنيسة»و«المدرسة»و«المستشفى» هى المؤسساتالرئيسية للاستعمار الانجليزى والفرنسى التى تروج

للايديولوجية الامبرياليــة عن طريق منــاهج التعليم فى المدارس والمعاهد والجامعات ، وعن طريق المحاضرات والفانوس السحرى والسينما فى المستشفيات ودور العبادة ، وعن طريق غزو الكنيسة الوطنية بتفتيت صفوف ابنائها واجتذاب ولائهم للكنائس الاجنبية بكل ما تمثله من قيم وأفكار ٠

وجاء عام ١٩٥٦ يمثل نقطة تحول خطيرة فى التاريخ العربى الحديث . بل ان هذا العام من الناحية الاخرى كان يمثل بدأية المرحلة الجديدة فى علاقة الاستعمار بالدول المتحررة حديثا والتابعة على السواء ٠ فقد اثبتت مغامرة السويس انه آن الأوان للبحث عن « **خطة عمل جديدة** » تخفى الانياب الســامة فى أقنعة من ذهب والمخالب الوحشية فى قفازات حريرية ٠وأقبل التخطيط «**الفكرى**» للاستعمار الجديد يقدم « **حلولا** » لبعض المظـاهر والأزمات التى صادفت مسارنا الثورى فى لقائه بالمثقفين ٠ ولم تكن هذه «**الحلول**» سوى الشباك والطعوم التى ألقت بها أجهزة الاستعمار فى مرحلته الجديدة ، لتحاول الصيد فى الماء العكر ٠٠ هكذا تحولت مؤسسة فرانكلين التى تم انشاء أول فرع لها فى العالم العربى بالقاهرة عام ١٩٥٣ عن أهداف اتفاقية التبادل الثقافى المنعقدة بيننا وبين الولايات المتحدة الامريكية ، الى مؤسسة للفكر الاستعمارى المباشر ٠ وقد بذلت فى هذا السبيل غاية الجهد والمال فلم تدخر وسعا فى تجنيد أكبر الطاقات العربية المثقفة من مترجمين ومؤلفين وناشرين فى تقـديم الافكار المعادية لتطورنا الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ٠

ولقد كانت فرانكلين بفروعها المختلفة رائدة التعبير الفكرى عن الاستعمار الجديد فى المنطقة العربية ، كما كانت وما تزال أكثر المؤسسات الامريكية شـمولا واسـتيعابا للهـدف الاسـتراتيجى للاستعمار الجديد ومراحله التكنيكية على السواء ٠ ولتحقيق هذا

الهدف عمدت مؤسسة **فرانكلين** الى تنسيق جهودها مع خطوات الانسان العربى ٠٠ فواكبت بدقة واصرار مختلف « **أزماتنا** » و « **انتصاراتنا** » و « **نكساتنا** » بسيل من الكتب التى تعالج الأزمة أو الانتصار أو النكسة من وجهة نظر الاستعمار الامريكى ٠ ووصلت عملية المواكبة لمشكلاتنا والمتابعة لمعارك حياتنا الى درجة عالية من الدقة ، فاذا وفدت علينا مشكلة « **التنمية الاقتصادية** » صدر عن فرانكلين خمسة عشر كتابا تعالج هذا الموضـوع فى اطـار النظـام الرأسمالى ومزاياه بأقلام مجموعة من أساتذة الجامعات فى الولايات المتحدة ثبت مؤخرا انها تخضع لاشراف وكالة المخابرات المركزية ، وهى جامعات هارفارد وبنسلفانيا وشيكاغو وكاليفورنيا ٠ واذا وفدت علينا قضية **الكيان الافريقى** المتحد ، سارعت فرانكلين الى اصدار عشرين كتابا عن افريقيا وتاريخها وجغرافيتها فى حدود الروابط التى تشد افريقيا الى أوروبا والفواصل التى تعزلها شمالا عن الجزء الناطق بالعربية ٠ واذا وفدت علينا معركة القومية العربية ضد الاستعمار أصدرت فرانكلين عشرة كتب عن الحضارة العربية والحضارة المصرية فى اطار الفكرة العنصرية التى تتخذ من الفراعنة أو الفينيقيين أو الأشوريين والبابليين أصلا تاريخيا وحيدا لحضارة العالم أجمع ٠٠ مع الالحاح على ان ثمة فرقا جوهريا بين « **العقـل الآسيوى** » الذى يتمتـع به العرب ، و « **العقـل الافريقى** » الذى يتمتع به المصريون ٠ تلك كانت الموضوعات الاسـتراتيجية ذات الوزن الثقيل التى عنى بها الاستعمار الجديد وصوب نحونا سهامه السامة بواسطة فرانكلين ، حتى تصيب ايديولوجيتها من عقـولنا وافئدتنا مقتلا فى المدى البعيد ٠ ولكنها فى نفس الوقت لم تهمل المدى القصير ولم تغفل عن المهـام العاجلة ٠٠ ومن ثم واصـلت متابعتها لنا الى درجة مذهلة حتى تدخلتمطبوعاتها بصورة مباشرة فى جزئيات حياتنا وتفاصيلها ، ولم تكتف بالخطوط العامة للنظام

السياسى فحسب . لذلك نراها تبادر أثنــاء «انتخـابات رئيس الجمهورية » الى نشر أكثر من كتاب عن النظام الرئاسى فى الولايات المتحدة ، و « حقوق رئيس الجمهورية الامريكى » . واذا دخلنا على مناقشات « الدستور الدائم » تدخلت فرانكلين برأيها فى الموضوع ونشرت الدراسات المطولة عن مزايا «الدستور الأمريكى». ويصل بها الامر الى التدخل السافر فى تنشئة اجيالنا الجديدة وتربيتها ، فتصدر لمختلف الاعمار السلاسل المتخصصة فى مخاطبتها. بالاضافة الى السلاسل المتخصصة فى مخاطبة العمال والفلاحين والنساء والمعلمين والشباب والآباء . وقد تمكنت فرانكلين من اصابة الكثير من اهدافها حين اقامت العلاقات « الرســمية » وعقدت الاتفاقيات بينها وبين وزارة التربية والتعليم وكلية التربية حتى تضفى على مطبوعاتها صفة « الشرعية » و « العلم الخالص » فتسربت من ثم الى العقلية العربية فى مختلف مستوياتها وبيئاتها وظروفها ، تحمل الى جانب الاســم الامريكى خاتما عربيا لمؤلف او مترجم او ناشر او هيئة حكومية . وبعد ان كانت فرانكلين – بموجب اتفاقية التبادل الثقافى – مجرد دار لنشر ثمار الحضارة والفكر فى مستوياتهما العليا أضحت حزبا سياسيا نشيطا على الصعيد العربى ، تنسق خطة عملها مع الجامعات الامريكية فى البلدان العربية من ناحية ، ومع مكاتب الاستعلامات الملحقة بالســفارات الامريكية فى المنطقة العربية من ناحية اخرى .

فهل قطعت فرانكلين شوطا فى طريق هدفها الاستراتيجى ؟ وماذا حققت من مهام عاجلة فى المدى القصير ؟ نخدع انفسنا خداعا لا حد له اذا أنكرنا ما حققته فرانكلين من نجاح كبير فى تجســيد **«الحلم الامريكى»** كبديل لانقاض **«التخلف الحضارى»** الذى نعانيه و « **التقاليد غير الديموقراطية فى اسلوب الحكم** » المنتشرة فى انحاء المنطقة العربية ، وقد تشــكلت مادة الحلم من الحرية الليبرالية فى

الميدان السياسى ، والتنظيم الرأسمالى فى ميدان الاقتصاد . وفى عبارة أخرى كانت « **ديموقراطية البرجوازية الغربية** » هى النموذج الاجتماعى الذى يقدمه الاستعمار الامريكى الجديد فى مواجهة حريات التحرر الوطنى المتجهة – عبر تطورها الاجتماعى الخاص – نحو الاشتراكية . وهذا هو الهدف الاستراتيجى الاول الذى حققت فرانكلين بعضا منه .. فبالرغم من ان الديموقراطية الغربية فى تطبيقاتها المحلية على البلدان العربية قد نالت من ضربات السلطات الحاكمة – الممثلة للعروش والاقطاع ورأس المال والاستعمار – ماتحول بها مع السنين الى كاريكاتور هزلى ، الا انمهمة فرانكلين كواحدة من اهم مؤسسات الامبريالية والاستعمار الجديد ، كانت على وجه التحديد أن « **تعيد الثقة** » الى النموذج الغربى فى البناء الاجتماعى، متخذة من «**الجنة الامريكية**» مثالا حيا يعيد الشباب الى هذا النموذج المحطم .. فجاءت مطبوعاتها مجموعة من الترميمات والرقع تحت عناوين براقة وشعارات لامعة كالرأسمالية الشعبية والتأميمات الجزئية والتوجيه الحر .. وقد دعمت الولايات المتحدة الامريكية الاعمدة التى قامت عليها هذه اللافتات بما كانت تصدره الى بعض الدول التابعة من امدادات تخلق جوا مفتعلا من الانتعاش الاقتصادى .

مؤسسة فرانكلين اذن مثال للأجهزة الفكرية التى استحدثها الاستعمار الجديد ، وهى من زاوية ما تعد بمثابة المدفعية الثقيلة فى وجه التطورات الاجتماعية المتوالية لشعوب المنطقة العربية .. هناك أمثلة أخرى عديدة سيرد ذكرها فى الفصول القادمة حين نسجل دور فرانكلين مرة أخرى على نحو أكثر تفصيلا . ولكن الاستعمار الجديد فى نفس الوقت كان يطور أجهزة الاستعمار التقليدى بما يتلاءم مع « الاوضاع » الجديدة فى المنطقة . لهذا السبب كان شديد الايمان بالتخصص ، وهو يشيد فى قلب الجامعات الأمريكية التى أنشئت قبل ميلاد ظاهرة الاستعمار الجديد،

أخطر « جهاز » علمي يخاطب صفوة المثقفين العرب ٠ هنا ، لا يتغير « وضع » الهدف الاستراتيجي ، وان تغيرت الزاوية التي يصوب منها الاستعمار قذائفه ٠ وبالرغم من طابع الجدية الذى حاولت فرانكلين أن تضفيه على اختياراتها للكتب التي أصدرتها (كارتفاع سعر الكتاب والتصميم غير المبهرج للغلاف والاسم الأكاديمى الرنان للمؤلف والمترجم) غير أن الهدف المباشر لانتاج هذه المؤسسة كان « مجموع الشعب لا « الصفوة المثقفة ». لهذا لم تحد عن رسالتها الأساسية وهى «**الاثارة**»**و** «**تهييج الرأى العام**» بقصد تشويه الطريق الاشتراكي للتطور الاجتماعي وحركات التحرر الوطنى ٠٠ ومن هنا بالغت فى حرصها على **تزيين البيت الرأسمالي** التابع للجنة الأمريكية ٠ كانت رسالة فرانكلين على وجه اليقين – والتحديد – هى « **اثارة الصراع بين الواقع المحلى والمثال الأمريكى** » فى وجدان الانسان العربى الذى تضغط على أعصابه مراحل الانتقال ونقاط التحول من المجتمع شبه الاقطاعى المستعمر الى مجتمع الاستقلال والتطور الاجتماعى نحو الاشتراكية . وهكذا يمكن أن يقال : ان فرانكلين هى الطلقة المباشرة التى تتم على درجة واحدة فى التخطيط الاستراتيجي للاستعمار الجديد ضد الثقافة العربية ،اذ هى تستهدف « المستهلك للثقافة » مباشرة دون وسيط ، وهذا خلاف جوهرى بينها وبين الجامعة الأمريكية فى بيروت أو القاهرة . اذ أن «معاهد العلم الأمريكى » تعد بمثابة الطلقة غير المباشرة التى تتم علىدرجتين ٠٠فهى لا تقدم كتابا أمريكيا يحمل اسم مترجم عربى ، وانما تعد مثقفا عربيا – مربيا كان أو كاتبا أو عالما – يحمل فى داخله « المصل الأمريكى » ومهمته هى حقن مواطنيه بهذا المصل ضد تطلعاتهم الانسانية العليا ٠ هذا لا يعنى أن الاثارة وحدها ، وشحن الضمير العربى بالوقود القادر على اشعال الأزمات ومضاعفة لهبها هى « كل » رسالة فرانكلين ٠٠ فلا شك أن لها رسالة أخرى وازت

الرسالة الأولى على نفس الخط ولم تقل عنها أهميـــة وخطورة وهى تجنيد الأقلام العربية ودور النشر فى خدمة الاســـتعمار الجديد ، سواء بالاغراءات المادية السخية ، أو بتشـابك المصالح المعـــادية لمسارنا الوطنى والاجتماعى ۰ وكانت فرانكلين تضرب عصفورين بحجر واحد ، فهى تباعد بين الأشياء الوطنية التى تتعامل معها وبين المشاركة فى بناء فكرنا القومى ـ تأليفا وترجمة ونشرا ـ ثم تسيطر على حياتهم المـادية وتحرف ولاءهم الفـــكرى باخضاع مؤلفاتهم وترجماتهم ومطابعهم لمخططات قادمة من وراء البحار ۰ أى أنهـــا تسلبهم ارادتهم الحرة وتحيلهم الى دمى تحركها خيوط غير مرئية ۰

الا أن هذه « المهمة المزدوجة » لا تطمس الفروق بين « وضع » فرانكلين ، و « وضع » الجامعة الأمريكية ، بالرغم من وحدة البناء الاستراتيجى الذى يجمعهما ۰ تتوقف رسالة فرانكلين عند حدود المقدمة التمهيدية ، الحدود « الشعبية » ان جاز التعبير ، حـــدود « الاثارة » وتهييج الرأى العام ۰۰ فاذا تم انجاز هـــذه المهمة قام الاستعمار الجديد بتطوير أخطر أجهزة الاستعمار التقليدى ـ معاهد التعليم وفى مقدمتها الجامعـــة ـ وارتفع بها الى مســـتوى الموقف الايديولوجى الراهن للامبريالية ۰ وهكذا تقف الجامعة الأمريكية فى بيروت والقاهرة وطنجة قلعة بارزة من قلاع الفـــكر الاستعمارى ومؤسسة كبرى من مؤسساته الثقافية ضد الفكر الوطنى والتقدمى فى الشرق العربى ۰ ذلك أن الجامعة الأمريكية فى القاهرة ظلت الى وقت قريب معهدا مغلقا على نفسه يضم غالبية من الطلبة الأجانب ، أما الجامعة الأمريكية فى المغرب فهى حديثة الانشاء والتـــكوين ۰ الجامعة الأمريكية فى لبنـــان اذن ، هى المركز الرئيسى للاشـــعاع الفكرى الاستعمارى ، خاصة وان الأغلبية الساحقة من طلبتهـــا عرب ، ويسجل التاريخ حقيقة فاجعة هى أن ثلاثة أجيـــال من المفكرين والأدباء العرب على الأقل ، تلقوا العلم فى رحـاب هـــذه

القلعة الاستعمارية فأثمرت فيهم أخطر ثمار الايديولوجية الاستعمارية الجديدة • فليست مصادفة على الاطلاق ، أن تكون منابر « الحرية الليبرالية » و « الاقتصاد الحر » و « الرأسمالية الشعبية »و« الأدب غير الملتزم » و « القوميات الاقليمية الشوفينية » وغيرها من الشعارات والمناهج المعادية لتقدم الوطن العربى وتطوره هى المنابر المدعمة بأموال **فورد وروكفلر** و « العلماء العرب » من مثقفى الجامعة الأمريكية بلبنان • وليست مصادفة على الاطلاق أن يصبح مدير مؤسسة فرانكلين فى بيروت رئيسا لقسم الأدب العربى بالجامعة الأمريكية فى بيروت • وليست مصادفة كذلك ، أن تقوم الجامعة « المحايدة » بفصل الطلبة الوطنيين اذا تظاهروا من أجل مصر أو الجزائر أو سوريا أو اليمن • ونظرة واحدة على مطبوعات الجامعة الأمريكية فى لبنان التى أصدرتها بالاشتراك مع فرانكلين أو دور النشر العميلة فى بيروت ، تؤكد أن « المخطط » الأمريكى كان يهدف الى جعل الجامعات الأمريكية فى الشرق الأوسط « **واجهة علمية موضوعية** » وظيفتها البحث الأمين المجرد ، وغايتها «**الحقيقة**» أينما كانت • فالجامعات تختلف عن فرانكلين فى أنها لا تخاطب « مجموع الشعب » وانما تستهدف صفوة العلماء والمثقفين والمفكرين والأدباء والفنانين • ولذلك فهى تخاطبهم بلغتهم التى لا « تشعل » ولا « تثير » وانما تعمق وترسخ مفاهيم الثورة المضادة والاستعمار الجديد • هكذا يصدر نائب رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت الدكتور قسطنطين رزيق كتابا مثل « نحن والتاريخ » و وآخر يدعى « فى معركة الحضارة » يروج فى أسلوب يوحى بالحياد والموضوعية لقيم الديموقراطية البرجوازية والأفكار القومية الشوفينية • وهكذا يصدر رينيه حبشى أستاذ الفلسفة بنفس الجامعة العديد من الأبحاث حول الحضارة « المتوسطية » التى تعزل بعض الشعوب العربية عن بعضها الآخر ، ويكاد يهمس بايديولوجية القوميين السوريين فى مستوى

جديد هو « القومية اللبنانية » ذات الجذور الفينيقية . واذا كان مدير فرانكلين فى بيروت هو رئيس الدائرة العربية فى الجامعة الأمريكية فى لبنان ، فان رينيه حبشى هو فيلسوف جماعة « الندوة اللبنانية » المعادية للقومية العربية والاشتراكية ، التى تبذل منشوراتها جهودا يائسة فى تدعيم الطائفية السوداء . وسوف يسجل التاريخ أيضا للجامعة الأمريكية فى بيروت أنها المؤسسة التى جندت خيرة علمائها فى تدوين مجلد ضخم هو « آثار الدارسين فى الأدب العربى » لم يكن له من هدف سوى تشويه جهود الدارسين المصريين وزعزعة الثقة فى علمهم ابتداء من طه حسين وانتهاء بمحمد مندور ، على النحو الذى بينته باسهاب مقالات الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى تعليقها على هذا الكتاب بالأهرام فور صدوره . ولم يكن للكتاب من هدف سوى التأكيد على أن الدارسين العظام هم وحدهم الذين تربوا على الموائد الأمريكية ومناهجها فى المعرفة ، أما الجامعات الوطنية فى مصر فلم تثمر الا مجموعة من القارئين بالعربية .

هكذا مضت الجامعة الأمريكية فى بيروت تشع نيران الحقد على كل ما هو وطنى وكل ما هو متقدم ، فى الفكر والحياة على السواء ، تحاول جهدها أن تربط المثقف العربى بعجلة الفكر الأمريكى والحضارة الأمريكية .. سواء بالمنح السخية التى توفر له الاقامة الطويلة فى الولايات المتحدة ، أو المرتبات المغرية التى يتقاضاها بعد العودة والعمل فى المؤسسات المختلفة للاستعمار الجديد . ولم تكن الجامعة الأمريكية فى القاهرة على هذه الدرجة من السفور التى كانت عليها وما تزال الجامعة الأمريكية فى بيروت .. فاكتفت فى الفترة الأخيرة بندب كبار الأدباء العالميين من أمثال الروائى انجس ولسن والشاعر روبرت لويل والناقد ريتشاردز لالقاء محاضراتهم فى قاعة يورت ، واكتفت بافتتاح ممراتها لعرض

لوحات الفنانين المصريين · واكتفت بأن يلقى الشـــعراء المصريون قصائدهم فى هذا الممر · واكتفت بتيسير مهمة الطلبة فى الحصول على مراجع أمريكية لا يرقى اليها الشك بحكم طبيعتها « العلمية » · واكتفت بارسال الطلبة والأساتذة فى دراسات ميـــدانية بالريف المصرى والمصانع المصرية · وكان من الممكن أن يقال عن هذه الظواهر أنها مجرد « نشاط زائد عن الحد » فى أســـوأ الفروض ، لولا أن الأسئلة التى قدمها الطلبة والأساتذة الأمريكيون للمواطنين المصريين قد أثارت من الريب والشكوك ما يرتفع بهذا « النشاط الزائد عن الحد » الى مستوى آخر يعلن عن نفسه بوضوح فى رفض الجامعـــة رفضا قاطعا أن تتم هذه الدراسات الميدانية باشراف مشترك بين المسئولين المصريين والمسئولين الأمريكيين · وحين استهوى تاريخنا القومى الحديث حاسة الشم العلميـــة عند الجامعة الأمريـــكية فى القاهرة ، رفضت بصورة قاطعة للمرة الثانية أن يشترك المصريون مع الأمريكيين فى اجراء هذه الأبحاث و «شراء» المذكرات والوثائق من بعض رجال الحكم فى مصر فيما قبل الثورة ·

على أنه اذا كانت الجامعة الأمريكية هى المؤسسة العتيدة فى مخاطبة صفوة المثقفين بلغة الاستعمار الجديد ، فان مجال عملهـا بالرغم من أهميته وخطورته ، هو مجال ضيق ، وان كانت ــ مع فرانكلين ــ يمثلان المدفعية الثقيلة المعدة ــ استراتيجيا ــ لضرب الثقافة العربية المناضلة ضد الاستعمار · فالدائرة التى تتحرك خلالها نشاطات الجامعة بين المثقفين ، هى بالضرورة دائرة ضيقة · لذلك كان الامتـــداد الطبيعى للجامعـــة ، وهو الأكثر اتساعا وانتشارا ، « مؤسسات النشر » المتعددة · وهى المؤسسات التى تختلف عن فرانكلين من حيث الشكل ، وان اتفقت معهـــا فى المضمون · وهى أيضا المؤسسات « التكتيكية » ان جاز التعبير عن

أجهزة الاستعمار الجديد ذات الأهداف العاجلة والمدى القصير . وهى تكاد أن تقتصر على ثلاث فئات :

* **الفئة الأولى** هى الملاحق الأدبية والفنية التى تصدرها دور الصحف العميلة فى لبنان مثل جريدة « النهار » و « لسان الحال » و « الجريدة » و « الحياة » . وسوف تطالعنا فى هذه الملاحق ، نفس الوجوه تقريبا التى طالعناها على أغلفة فرانكلين وفى مقدمة مدرجات الجامعة الأمريكية . وهى ملاحق تتابع — من الناحية الصحفية — متابعة دقيقة تيارات الفكر الغربى المعاصر . وفى نفس الوقت ملاحقة بارعة لكافة الأزمات أو المشكلات التى تنشب أحيانا بين فريق من الأدباء والفنانين فى البلدان الاشتراكية والسلطات السياسية . ثم « احتقار عظيم » للتراث العربى والحياة العربية والانتاج الأدبى والفنى المكتوب باللغة العربية المعاصرة باستثناء المحاولات « النموذجية » فى تبعيتها لكل ماينتجه الغرب من أصيل ومزيف على السواء .

* **والفئة الثانية** هى المجلات ذات الوزن الثقيل ، لا كمجلة « **المختار** » التى تصدر فى مصر ، وانما كمجلة « حوار » التى ظلت تصدر بانتظام طيلة السنوات الخمس الماضية ، الى أن استقال رئيس تحريرها توفيق صايغ بعد أن تأكد لديه أن المنظمة العالمية لحرية الثقافة تتقاضى أموالها من وكالة المخابرات المركزية الامريكية . وكان ستيفن سبندر قد سبق توفيق صايغ الى الاستقالة من رئاسة تحرير مجلة « انكاونتر » وكذلك اجنازيو سيلونى من المجلة التى تصدر فى ايطاليا عن نفس المنظمة ، ولنفس الأسباب . هذا النوع من المجلات ذو وزن ثقيل حقا ، لأن المهارة فى توجيهه تكاد أن تحجب الرؤية عن بصائر الكثيرين من الكتاب الشرفاء من أمثال سبندر وسيلونى وصايغ والمائتى كاتب عربى الذين شاركوا

بصورة أو بأخرى فى تحرير « حوار » فالمعروف عن سبندر وسيلونى مثلا أنهم من صفوف اليسار الاوروبى · ومن المعروف كذلك ان « حوار » أفسحت بعض صفحاتها لكتابات يسارية ووطنية ، بحيث تعذرت الرؤية الواضحة لأهداف هـذه المجلة ·· الى أن احتجبت أخيرا تجر أذيال الخيبة من جانب مموليهـا ، وترسم علامة أسف دامية فى قلوب الذين أسهموا يوما فى تحريرها · وتصبح مأساة « حوار » فى الشرق العربى نموذجا رائعا للوعى العربى المناضل ضد كافة أشكال الاستعمار الجديد ومؤسساته الفكرية والثقافية · وكما كانت الجامعة الأمريكيـة ولا تزال بمثـابة المركز الرئيسى للاشعاع الفكرى الاستعمارى من الناحية الاسـتراتيجية ، فان « حوار » واخواتها تعد المنبر الرئيسى لمخاطبة « الأنتلجنسـيا » العربية سواء بالتأكيد على « **حرية الفكر** » تأكيدا ليبراليا يحتـذى النماذج الغربية فى النظام السياسى ، أو بالتأكيد على «**غياب الحرية**» من مؤسسات الثقافة والفكر الاشتراكيين ، أو بالتأكيد على « **أزمة الحرية** » فى الوطن العربى · واذا كانت « حوار » قد انتهت ، فان هذا لا يعنى مطلقا أن الامبريالية كفت عن التعامل مع المثقفين العرب ·· فمن قبل كانت مجلتا « شعر » و « أدب » تقومان بنفس الدور الخطير الذى قامت به « حوار » أثناء وبعد توقفهما · لنتوقع اذن مجلة جديدة أو أكثر تحل محل « حوار » مهما تغيرت الأسـماء والألوان والمصادر ·

* **والفئة الثالثة** هى دور النشر التى تصدر الكتب يوميا على وجه التقريب ، ضد التجربة التقدمية الثورية فى مصر والجزائر واليمن وسوريا · وتسلك فى هذا السبيل أكثر المنعطفات تخفيا فتصـدر دار **الكتاب العربى** بلبنان مثلا ، كتابا عنوانه « **اختبار الاشتراكية فى مصر** » وقد زينت غلافه بأقلام نخبة من الـكتاب المصريين ، فتسارع بقراءة الكتاب لتجد أن النـاشر العربى قد اختـار من صـحافتنا بعناية فائقة مجموعة من المقالات ــ أو أجزاء منها ــ

لهؤلاء الكتاب ينقدون فيهـا بعض الأوضـاع فى أجهـزتنا الادارية أو الفنية . ولا تعليق سـوى أن القـارىء لن يترك الكتاب الا بانطباع متضـخم لهـذا الجـانب السـلبى أو ذاك .. ولا بد من أن تكون النتيجـة هى الاعتـراف بأن التجـربة الديموقراطية فى مصر تتيح الفرصـة كاملة لـكل نقـد نزيه بنـاء ، تتخـذ هـذه التجربة بعينهـا ذريعـة للقـول بأن « اختبار الاشتراكية فى مصر » يؤكد أن النتيجة « **سلبية** » فحسب. لأن الناشر قد أتى بشرائح لا سبيل الى التشكيك فى صلاحيتهـا للحكم ، ووضعها تحت الميكروسكوب فى « شـكل » كتاب علمى بأقلام مصرية ، فلا يصبح الأمر عند القارىء المسكين مجرد جزئيات، بل يتعداها الى « **النظام بأكمله** » . وليس هذا الكتاب الا مثالا لكتب عديدة ظهرت فى بيروت حول « **مأساة الانفصال** » **و** « **أزمة اليمن** » وغير ذلك من الموضوعات التى تجذب القـارىء من أقصى الأرض العربية .

* **والفئة الرابعة** تعنى باعداد الأجيال الجديدة اعدادا يفضى بهم الى المؤسسات ذات الوزن الثقيل بصورة تلقائية . فهى تبدأ معهم بالمجلات الخفيفة ذات الطابع العلمى أحيانا والمحور الجنسى أحيانا أخرى .. فمجلات مثل « **سوبرمان** » و « المغـامر و « الأبطال » و « الجواسيس » و « **الوطواط** » و « جيمس بوند » انما تكمل ذلك الدور الهائل الذى تؤديه أفلام المخابرات الأمريكية التى تعتمد على أحدث منجزات التكنيك العلمى . وبعد أن كانت أفلام طرزان فى الماضى من أساليب الاستعمار القديم الذى يوهم العالم بأن رسالة الرجل الأبيض هى تمدين الرجل الأسود مهما تكبد من أجل هذا « الهدف النبيل » من قسوة المناخ وضراوة الأحراش ومفـاجآت المجتمع البدائى فى أفريقيا .. أضـحت الآن أفلام جيمس بوند ومطبوعاته المختلفة الأشكال والألوان والأحجام والأسماء توظف

منجزات العلم الحديث فى خدمة رجل المخابرات القوى كالاسطورة·
ومن ثم تصبح «المخابرات الأمريكية» على وجه التحديد «قوة هرقلية»
لا قبل لأحد بمقاومتها . بل لماذا نقاومها وهى الامتـــداد المتطور
لطرزان القديم ، رسالتها أكثر تطورا وازدهارا من رسالته . فهى
لا تكتفى بتمدين الرجل الأسود بل هى تعمل جاهدة على تمدين
الرجل الأصفر والأحمر ومابين بين . . مع اختلاف بسيط عن رسالة
طرزان القديم هو أن رجل المخابرات الامريكية ليس فردا مغامرا
تستهويه غابات افريقيا وأحراشها ، بل هو ممثل رسمى لجهاز
أكبر ونظام أعقد وأكثر تركيبا ·· هو رســول شرعى للاستعمار
الجديد يقلب الحكومات الوطنية ، ويتحرش بالشعوب الثورية ،
ولا يكف لحظة واحدة عن تخريب النظم الاجتماعية التقدمية ··
كل ذلك تحت ستار الشــعارات البراقة اللامعة التى يجســدها
تمثال الحرية الشهير عند مدخل نيويورك . على ان يقظة الشعوب
تكتشف يوما بعد يوم ، ان كلمة « الليبرالية » هى القناع المهذب
لسيطرة الرجعية المحلية على مقادير حياتها ، وان كلمة «السلام»
باللغة الامريكية تعنى الخضـــوع والتبعية للاحتكارات الاجنبية ؛
ومن ثم فقد وعتهذه الشعوب أنمسدس جيمس بوند لايستهدف
برصاصاته صدور « العصابات الارهابية » و « التخلف » الحضارى،
بل يستهدف صـــدور « الثوار » و « التقـــدم » الاجتماعى ، وربط
الشعوب والدول الحرة بعجلة المخابرات الامريكية ·

وتتعدد أجهزة الاستعمار الجديد الايديولوجية ــ اســتراتيجيا
وتكتيكيا ــ تعدد المجالات التى تحررت حديثا من الاستعمار القديم ·
وهى مجالات بكر احيانا لم يبق بها سوى انقاض « التخلف الحضارى »
و « التقاليد غير الديموقراطية فى اسلوب الحكم » التركة الموروثة
من تحالف الامبريالية والرجعية المحلية ، وهى التركة التى تعمل
على تصفيتها الثورات العربية المعاصرة منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ فى

مصر • وهى أيضا ـ وفى نفس الوقت ـ التركة التى تحـاول استغلالها وتنميتها وتدعيمها المؤسسات الفكرية والثقافية للاستعمار الجديد فى المنطقة العربية • واذا كان بعض هذه المؤسسات قد أخفق حتى اليوم فى كسب شبر واحد من أرض المعركة الفكرية الضارية بيننا وبين الايديولوجية الاستعمارية فان بعضها الآخر لايزال يقاتل على الخطوط الامامية من الجبهة • وهذا ما يحتاج الى وقفة طويلة وتفصيل دقيق •



الفصل الثانى

حصان طروادة الاستعمارى فى حياتنا الثقافية

كانت المفاجأة الجديدة التى حملتها الينا الرياح القادمة من بيروت هى هذا السيل الجارف من المجلات المتخصصة : **أطفالكم** تستهويها مغامرات « سوبرمان البطل الجبار » فليقرأوا اذن مجلة «**سوبرمان**» تصدر عن شركة المطبوعات المصورة. **صبيانكم** مولعون بمغامرات « الرجل الوطواط باتمان » فلنصدر لهم مجلة «الوطواط» عن نفس الشركة السابقة . **شبابكم** مغرم بالعميل السرى «جيمس **بوند**» فليقرأ بنهم اذن المجلة المتخصصة جدا « **الجواسيس** » عن دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة . فماذا تنشر هذه المجلة على سبيل المثال ؟ بحرف أسود بارز كتبوا تحت اسمها « **أشهر وأغرب قصص الجاسوسية العالمية وقصة الحرب السرية الباردة بين المعسكرين** » ثم يوجه الناشر خطابه الى قارئه العزيز «... هذا عصر الجاسوسية، سواء فى الحقيقة أم فى القصة .. ففى نفس اليوم الذى اصطف الناس فى طوابير أمام دور السينما لمشاهدة آخر أفلام جيمس بوند، أعلن مكتب التحريات الفدرالى فى أمريكا اعتراف جندى سابق فى

جيش الولايات المتحدة بالتجسس لحساب الروس» . والموضوع الاول في المجلة – نقلا عن الجزء الخامس من المجلد الأول – هو مقابلة أجراها المحرر مع « **قطب كبير في دائرة الاستخبارات** » على حد تعبيره .. ومن أهم الاسئلة والاجابات التى تمت فى المقابلة ما جاء بالحرف فى (ص ٤) :

« **س :** هل بوسع أى انسان عادى أن يلتحق بالاستخبارات ويقوم بمهمات تجسسية بمجرد قبوله وتوقيعه على الاوراق ؟

ج : ان معظم مؤسسات ومنظمات الاستخبارات لديها فى هذا الشأن بعض المتطلبات التوظيفية .. وأيضا هناك بعض المناهج التدريبية التى يجب أن يمر فيها من يحوز القبول .

س : ما هى أهم الصفات والمؤهلات التى يجب توفرها فى الجاسوس ؟

ج : هذا أمر يتعذر تمييزه وتوضيحه .. فمعظم الدبلوماسيين والملحقين العسكريين والملحقين الصحافيين والتجاريين يعملون اليوم كجواسيس طالما أنهم يجمعون المعلومات بالسر . ولكنهم يتمتعون بستار وتغطية تامة ألا وهى الحصانة الدبلوماسية . تسألني بعد ذلك ما هى صفات الجاسوس ؟ انها مسألة تكمن فى سيرة الاشخاص ومع ذلك فثمة صفات أساسية يجب توفرها فى الشخص مثل أن يكون ملما ببعض اللغات سريع البديهة والمبادهة .. قوى الجسد .. الخ .

س : يتهم الجواسيس الروس بأنهم يستعملون الرشوة والتشهير والجنس والكحول والمخدرات وكل أداة أخرى شيطانية .. فهل باقى جواسيس العالم يلجأون الى نفس الاساليب ؟

ج : ولم لا .؟. كل هذا جائز وعادل سواء فى الحرب الساخنة أم الباردة .. »

هذه عينة فقط من حوار مثير كتب كما لو كانت المجلة اعلانا كبيرا عن وظائف خالية فى دوائر وكالة المخابرات المركزية ٠٠ فاذا تصفحنا المجلة بعد ذلك لرأينا نمـاذج متعددة لجيمس بوند بين أحضان الفاتنات العاريات ٠٠ أو لقرأنا المغامرة الخرافية لأحد العملاء السريين الذى وقع فى « قبضة الصين الشيوعية . وليست « سوبرمان » أو « الوطواط » الموجهتين الى الاطفـال والمراهقين الا تصـويرا كاريكاتوريا لمغامرات « **فتى العصر** » الامريكى : **الجاسـوس** ! ولن نستطيع أن نحصر عـدد المجـلات « **اللبنانية** » من حيث المظهر ، «**الامريكية**» من حيث الجوهر ، المجلات التى تسمى نفسها «المغامر» أو «الابطال» أو غير ذلك من الاسماء التى تستهوى أعمـار أبنائنا الغضة ، وتستهدف تنشئتهم على هذا المثال الذى ترسمه المخابرات الامريكية ٠

والملاحظ ان هذه المجلات قد ظهرت كسيل جارف فى السنوات الخمس الاخيرة ، أى فى الوقت الذى تكاد فيه السوق الوطنية أن تخلو من مجلات جادة للأطفال ٠٠ فالجهـات المعنية فى الولايات المتحدة تبدى اهتمـاما **كبيرا بمسألة التـوقيت الزمنى** وفى كتاب « الحـرب النفسـية ــ الجـزء الاول » يقـول المؤلف (فى ص ١٤٤ و ١٤٥) ان الامر الذى أعاد تحديد مهـام كل من معاومات الحرب ومكتب الخدمات الاستراتيجية فى أمريكا كان مسئولا الى حد كبير عن طبيعة الحرب النفسية التى أنشئت أثناء الحرب فى القيادات الموجودة فيما وراء البحار ٠٠ **وان المنطقة التى بدأت فيها الولايات المتحدة بمجهود عسكرى فى الحرب النفسية هى شـمال أفريقيا** » وهكذا صدرت فى مصر عام ١٩٤٣ مجلة « المختار » التى كتب على غلاف عددها الاول «ان رئيس تحريرها : فؤاد صروف وأن مديرها المـالى : ت . ى . مورد » وقـد ظلت هـذه المجلة خمسـة أعـوام ، أى الى عـام ١٩٤٨ حيث توقفت ؛

تؤكد على أن الجيش الامريكى حصن السلام فى العالم .
وان الولايات المتحدة هى حامية الحرية على ظهر الارض .
كذلك فان الرسالة الحضارية للانسان الامريكى « الثرى
بطبيعة بلاده » هى الارتفاع بمستوى الشعوب المتخلفة « الترف
مهلكة للحضارة – المختار– يوليو١٩٤٦ » وتقدم صورة سحرية عن
البلدان المناضلة ضد الاستعمار ، فهى بلاد الغموض والنساء
الساحرات . ثم تقديم الرأسمالية الامريكية فى ثوب جديد يسمونه
الرأسمالية الشعبية حينا ، **والاشتراكية الجديدة** التى تمزج بين
كرامة الانسان وحريته حينا آخر (المختار – اكتوبر ١٩٤٦) .
وأخيرا تقديم «**فتى العصر**» أو «**البطل**» فى صورة العصامى الذى يبدأ
من السفح حتى يصل الى القمة. كان ذلك خلال السنوات الخمس
من ١٩٤٣ الى ١٩٤٨ حيث لم تكن قد أسفرت أمريكا بعد عن وجهها
الاستعمارى العدوانى بجلاء. ثم توقفت «المختار» عن الصدور سبع
سنوات ، وعاودت الصدور فى أول يناير ١٩٥٦ حيث كشفت أمريكا
عن الوجه الارهابى المباشر فى تهديدها بالسلاح .. فهكذا لم تعد
الولايات المتحدة حامية للفكر والحضارة والحرية وغيرها من المجردات
والمعنويات والقيم ، بل أصبحت حامية للأرض والناس .. تهدد
« فى عدد فبراير من المختار » بقول الكاتب « هنا تصنع القنبلة
الهيدروجينية » أو « الغواصة الذرية سلاح رهيب » ولم تعد تقتصر
على وصف البلدان المتخلفة بالغموض والسحر ، بل أضحت تهاجم
ما يموج بها من انتفاضات وطنية .

ان أحدث أعداد «المختار» يتضمن ثلاث مقالات رئيسية أولها
بقلم آن لندبرج عن مجلة «لايف» تحت عنوان (اكتشفت نفسى فى
افريقيا) حول رحلة صيد «عائلية» قامت بها الكاتبة فى شرق أفريقيا
(المختار مارس ١٩٦٧) وتخرج من المقال بأن أفريقيا حديقة حيوان
كبيرة ومسلية وتغرى بالمغامرة . وفى نفس العدد مقال ملخص من

مجلة « تايم » عبارة عن « كشف حســاب أرباح الزنجى الامريكى وخسائره » فنراه يقول بالحرف (ص ٢٧) «انه على الرغم من ان البيض مازالوا يكسبون أكثر كثيراً من الزنوج **فان دخل الزنوج فى عدد من المناطق قد ارتفع بمعدل ٢٤٪ منذ سنة ١٩٦٠ مقابل ١٤٪ فقط للبيض** » **وفى (ص ٢٨) يقول « ··· وفى الجنوب يستخدم الزنوج الذين حصلوا على قدر طيب من التعليم لاول مرة فى وظائف الكتبه ورجال البوليس والممرضات فى مستشفيات البيض ومدرسين فى مدارس البيض»** وفى ص ٢٩ يقول : «أحرز الزنوج مكاسب مثيرة فى ميدان التعليم فقد ارتفع عددهم فى الكليات والجامعات الى ٢٣٤ ألفا وهو رقم أكبر كثيرا من جملة عدد الطلبة فى بلجيكا والسويد والنرويج والدانمرك وفنلندا وسويسرا معا » وفى (ص ٣٠) يقول أنه فى الميدان السياسى كان التقدم عظيما « **فقد ارتفع عدد الزنوج الذين يتقدمون للوظائف التى تشغل بطريق الانتخاب الديمقراطى بنسبة ٣٤٪ فى الحزب الديمقراطى خلال العامين الماضيين فقط ، كما ارتفع عدد الزنوج فى الكونجرس الامريكى من اثنين فى عام ١٩٥٤ الى سبعة فى الوقت الحالى** » ·

أى أن أمريكا ببساطة هى جنة الزنوج ، وليست ــ كما يقال ــ جحيما يدعى أحيانا بمأساة التفرقة العنصرية ·

وهكذا نجد أن المجلة الموجهة الى مثقفى البرجوازية الصغيرة فى مصر والمنطقة العربية بأسرها قد غيرت من لهجتهــا ومحاور تفكيرها عما كانت عليه بين عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٨ اذ أصبحت بوقا للولايات المتحدة فى مرحلتها الجديدة حيث تكشف عن أنيابها الذرية وتشوه الحركات الوطنية وتستعدى الشعوب الحرة على الاشتراكية والمعسكر الاشتراكى (١) ·

---

(١) أرجو مراجعة الدراسة التى نشرها صلاح عيسى فى مجلة «الحرية» فى العددين ٢٥٤و٢٥٥ من يناير ١٩٦٥ ·

على أن المخابرات الأمريكية لم تقتصر فى الحرب الفكرية التى تشنها على شعوب المستعمرات والبلدان المستقلة حديثا ، على المجلات المتخصصة حسب الاعمار والبيئـات والاهتمامات ، بل واظبت على شكل آخر من اشكال «**تصدير الفكر**» فى مقدمتها دور النشر التى تحمل واجهات براقة كشعار «مؤسسة فرانكلين» «مؤسسة ثقافية غير تجارية» عن طريق اتفاقيات التبادل الثقافى التى يتم توقيعها على مستوى الحكومات ، وأن ترك الامر فى بلد كالولايات المتـــحدة لشركات ومؤسسات تكشف الصحافة الامريكية هذه الايام بصراحة مذهلة عن مصـــادر تمويلها التى يخرج معظمهـا من خزينــة وكالة المخـــابرات المركزية ٠٠ واما عن طريق مكاتب الاستعلامات التى تخضع بصورة أو بأخرى لاشراف نفس الوكالة كمـا جاء فى كتاب «الحكومة الخفية» (ص ٣٩٢) وهكذا ظهرت مؤسسة فرانكلين فى القـاهرة عـــام ١٩٥٣ كأول فرع لهذه المؤسسة الامريكية خارج الولايات المتحدة ٠

واذا كانت اتفاقية التبادل الثقـافى بيننا وبين أمريكا تجيز نشر الكتب الامريكية التى تساهم فى عملية «التقارب بين الشعبين» ، واذا كانت هذه الاتفاقية تنص على عدم جواز نشر ما يسىء الى النظام الاجتماعى والسياسى لكل من البلدين، فان مؤسسة فرانكلين قد دأبت منذ عام ١٩٥٣ الى الآن على تنظيم مواجهة فكرية غير متكافئة لتطورنا الاجتماعى والسياسى ٠ وأقول « غير متكافئة » لأننا من جانبنا لم نقم فى الولايات المتـــحدة بتأسيس دار مصرية للنشر مهمتها التحرش بالنظام الأمريكى والدس له ٠ وأقول « غير متكافئة » لان مؤسسة فرانكلين لم تقـم من ناحيتها بتنفيذ نصوص الاتفاقية فيما يخص ترجمة الكتب العربية الهامة الى اللغة الانجليزية وطبعها وتوزيعها على الدوائر العلمية والفكرية والادبية فى الولايات المتحدة الامريكية ٠ وأقول «غير متكافئة» لأنه لم يحدث بين دور النشر المصرية ومؤسسة

فرانكلين أى صراع يذكر ، لان المؤسسة كانت من الذكاء بحيث انها بادرت لا بتجميد أية امكانيات وليدة للصراع فحسب ، بل وتجنيد أهم دور النشر المصرية فى خدمة أهدافها الخفية والظاهرة ٠ وأقول أخيرا انها نظمت مواجهة فكرية « غير متكافئة » لتطورنا الاجتماعى والسياسى ، لأنها قامت باغتيال معظم الطاقات المصرية القادرة على المجابهة فأشركتها فى مجالس ادارتها ومستشاريها مباشرة ٠ أو أشركتها فى الربح عن طريق البيع والشراء مع مكتبات وزارتى التربية والتعليم والتعليم العالى ٠ أو انها أشركتها فى الكسب بواسطة تقديم الكتب وأعدادها وترجمتها والاشراف عليها ومراجعتها الى آخر هذه التسميات التى يسدد بها موظف الحسابات فى فرانكلين خانة المبلغ المدفوع ٠

فرانكلين ليست تبادلا ثقافيا :

والآن ما هى المواجهة التى قامت بها فرانكلين حين خرجت من بطن الحصان الطروادى الى حياتنا الثقافية ؟ لقد رسمت سياستها فى نيويورك على أساس ان الموافقة النهائية على الكتاب المقترح ترجمته تتم هناك فى أمريكا ٠ وعند التنفيذ رسمت هذه السياسة طوقا حديديا يحيط بكافة الاهداف التى حرصت المؤسسة منذ البدء على اصابتها كالطفل الصغير والشاب فى مقتبل العمر والرجل الناضج والسيدة المتزوجة ربة المنزل والمرأة العاملة ٠٠ الى بقية القائمة التى تلخص فى مجموعها مختلف فئات الشعب المصرى وطبقاته الاجتماعية٠ ومن أجل اصابة هذه الاهداف التى يحددها اطارنا الفكرى الواضح وهو التطور نحو الاشتراكية ، كرست المؤسسة مجموعة من « السلاسل » التى تخصصت فى التربية كسلسلة « دراسات سيكلوجية وعلم النفس للآباء والمدرسين» وسلسلة «الثقافة العائلية» وسلسلة «بحوث تربوية فى خدمة المعلم» وسلسلة « التعليم فى ضوء

التجارب» ٠٠ وهناك السلاسل التى تخصصت فى العلوم مثل «ألف باء » و «كتابك الاول عن» « والعلوم المبسطة» و « كل شيء عن » « معالم الطريق » و « حول العالم فى كتب » وسلاسل أخرى عن فن الادارة «كيف تكون مديرا ناجحا ؟ » و «رجل الادارة »و«دولة الادارة» و «المؤتمرات المثمرة» و (كيف تدير المناقشة) ٠ أما ماذا تقوله هذه السلاسل جميعها فهى تقدم فى صورة تبدو كما لو كانت محايدة موضوعية تماما « المثال الامريكى الناجح » للمعلم والتلميذ والمهندس والطبيب والعـــامل والمدير والســـياسى ورجل الاعمال والفلاح ٠٠ الى غير ذلك من نماذج بشرية ترغب السياسة الامريكية لمؤسسة فرانكلين أنتصوغهاوفق «الحلم الأمريكى» فى السيطرةعلى الشعوب عن طريق اتساع الهوة بين المواطن ووطنه فلا يجد ملاذا يأويه سوى «الجنة الامريكية»٠ وتقلم المؤسسة أظافر الكتاب العرب والمترجمين العرب ، فتدفع أحدهم مثلا أن يكتب مقدمة لكتاب «قصة أفريقيا جنوب الصـــحراء الكبرى تأليف كاثارين سانيدج » يقول المترجم فى مقدمته أن الكتاب « يتميز بروح من الدقة العلميـــــة والنزاهة فى العرض» بينما يبرر المؤلف الاستعمار البرتغالى لأفريقيا بأن البرتغاليين انما « علموا أهلها كيف يزرعون النباتات » ٠ وتدفع نفس المترجم أن ينقل كتابا عنوانه « نظرات فى مستقبل الحركة العمالية» يقول مؤلفه عند الخاتمة أن النظام الذى يتعرض للمحاكمة الآن ليس هو النظام الرأسمالى بل هو النظام الاشتراكى ، والنموذج العظيم للرأسمالية الحديثة هو النموذج الامريكى ٠٠ لذلك تترجم المؤسسة كتابا مثل « البيت المسحور ــ تأليف جوليوس شوارتز » يقـــدم البيت الامريكى البديل الراقى المتحضر للبيت الذى يسكنه القارىء المصرى . وكتابا مثل «تعال معى الى السد» ــ تأليف لى دافيد هاملتون يتضمن وصـــفا تفصـــيليا لســـد جلين كاينون بأمريكا الذى يعتبر أعظم المشروعات الانشائية الحديثة ، مع ملاحظةأنالكتاب

نشر فى سلسلة موجهة الى الاطفال • كذلك الكتاب الذى يقول فيه المؤلف « كان الشعب المصرى شعبا نبيلا معتدا بنفسه وعاش ملوكهم فى أبهة من الذهب والجواهر لا نجد لها مثيلا فى عالمنا» ثم يضيف « وانقرض هذا الشعب القديم وتلاشى ما بقى منه فى جنس أجنبى من الغزاة وبقى فقط أعظم آثاره وأقواها بناء وأغلبها أطلال » • (ص ٥٩ من كتاب البعثات العلمية الشهيرة تأليف رايمون هولدن)•

وتلجأ المؤسسة أحيانا الى ماتسميه بالتعريب ،فتخلع الاسماء الامريكية وتضع مكانها الاسماء العربية فيتألق الحلم الامريكى فى الذهن العربى القارىء حتى ليكاد أن يكون واقعا ممكنا •• لو أننا أخذنا بالوجـــه الآخر للقضية ، الوجه الذى توليه فرانكلين جـل رعايتها واهتمامها وهو النظام الاقتصادى والسياسى فتنظم خطتها وفق تطور الاحداث فى بلادنا ، فاذا كان **تطوير القانون** هو الموضوع المثار صدر كتاب مثل « النظام القضائى فى الولايات المتحدة » واذا كانت **انتخابات الرئاسة** هى الموضوع المثار صدر كتاب مثل «سلطة الرئيس فى الولايات المتحدة» واذا كان الدستور هو الموضوع المثار صدر كتاب مثل » التجربة الدستورية فى الولايات المتحدة » واذا كانت **الحرب فى فيتنام** هى الموضوع المثار صدر كتاب مثل « قصة الدنيا الجديدة » يبرر القاء القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكى ويؤكد أن أمريكا تعاون بقية الامم على أن تعيش فى سلام دائم(١)•

يتم ذلك فى تنسيق كامل ودقيق مع مكتب الاســتعلامات بالسفارة الامريكية فيصدر كتبا فى نفس الموضوعات المثارة بأسعار زهيدة وورق فاخر وقد خلت من خاتم فرانكلين أو أية شبهة أمريكية ظاهرة •• فالناشر عربى والمترجم عربى ، ولا شىء آخر يثير الشبهة

---

(١) راجع بحثا تفصيليا فى هذا الموضوع نشرته مجلة الكاتب فى عددى يناير ومارس ١٩٦٧ لعبد الجليل حسن •

سوى السعر الزهيد والورق الفاخر والموضوع الامريكي والمعالجة الامريكية .. بالاضافة الى هذا التوقيت المريب وهـذه الدقة فى اختيار القضايا المطروحة ، فعندما نوقشت خطة التنمية فى بلادنا ظهرت على الفور هذه الكتب «الرخاء بدون تضخم» ، و«تجارب فى تنمية المجتمعات الصغيرة» و «معونة الدول النامية» و «أضـواء على التنمية الاقتصادية»و« فلسفة النظام التعاونى. ان المؤسسةالامريكية ومكتب الاستعلامات الامريكي لايكتفيان بتقديم «النموذج الامريكى» الذى يجسد فى عقل القارىء العربى وخياله « حلما » وانما همـا يقدمان « الطريق » الامريكى لتحقيق هـذا الحلم وذاك النمـوذج انهما يقدمان «الحل» السياسى والاقتصادى البديل لنظامنا الاجتماعى فيهيئان بذلك مناخا فكريا للثورة المضادة. وليس هذا الهدف الذى ترسمه وترعى تنفيذه وكالة المخابرات المركزية هو الهـدف الذى صاغته الاحرف والكلمات فى بنود اتفاقية التبادل الثقافى بيننا وبين الولايات المتحدة الامريكية . انهم يستخدمون الاسماء الكبيرة فى ثقافتنا التضليل والارهاب العلمى . ويصدرون المراجع الكبرى بل والموسوعات التى ترتبط ثقافتنا تلقائيا بعجلتها لعشرات السنين (١) وهم يعدون ما يسمونه بالاستفتاءات لاسـتطلاع رأى الطلبة والمدرسين وأمناء المكتبات ثم يصدرونها فى أبحاث خلت اغلفتها من اسم فرانكلين وكتب عليها « وزارة التعليم العالى ـ التخطيط » و « وزارة التربية والتعليم ـ مكتب خبير التقويم والامتحانات ».واذا اثيرت قضية تطوير التعليم صدرت كتب مثل « التعليم العالى فى الولايات المتحدة » و « أحاديث عن التعليم فى أمريكا » و « مدارس الغد فى الوقت الحاضر » وهو تقرير عن التجارب التعليمية لوزارة التربية بولاية نيويورك .

---

(١) كالموسوعة العربية الميسرة التى صدرت فعلا عن فرع القاهرة ، والقاموس الذى يعده الآن فرع بيروت .

لقد نجحت السياسة الامريكية ـ سواء كانت وكالة المخابرات المركزية أداة تنفيذية أو جهة تمويلية ـ فى أن تجند لخدمتها شبكة هائلة من دور النشر المصرية والعربية التى تفضل الطريق السهل الى أكبر وأسرع ربـح ممـكن . والتسهيلات الضخمة التى تقدمها فرانكلين والسفارة الامريكية تكفل لها هذا الطريق القصير . كما نجحت هذه السياسة فى تجنيد جيش ضخم من الكتاب والمترجمين ارتبطت مصالحهم بالمكافآت السخية التى تصرفها جهات التمويل فى مقابل التقديم أو المراجعة أو الترجمة أو الاعداد أو الاشراف أو الاستشارة أو عضوية مجلس الادارة .

الجامعات الامريكية أو مخلب القط :

على أن حصان طروادة الاستعمارى لم يكتف قط بسبيل المجلات المتخصصة ودور النشر واصدار الكتب .. وانما كان يرى فى معاهد التعليم ـ وخاصة الجامعات ـ أسلحة بارعة فى اصابة الهدف والى وقت قريب كان هناك جامعتان فى الشرق العربى احداهما فى بيروت والاخرى فى القاهرة .. وفى مارس الماضى وضع حجر الاساس فى طنجة بالمغرب لاقامة الجامعة الامريكية الثالثة فى المنطقة العربية .

أما فى بيروت ، « فقد أذاعت لجنة الطلبة فى الجامعة الامريكية تقريرا ضمنته نتائج أبحاثها فى النشاط المشـبوه الذى تقـوم به الجامعة الامريكية فى بيروت . وقد أكد التقرير وجود علاقة بين هذه الجامعة ووكالة المخابرات المركزية الامريكية وان رئيس الجامعة الامريكية مستر كيركود يعرف أسماء العاملين فى خدمة المخابرات داخل الجامعة . كما كلفت المخابرات الامريكية أحد أساتذة الفلسفة بتنفيذ خطة لمحـاربة الانتاج الفـكرى التقدمى وقال التقرير ان المخابرات الامريكية تتستر خلف برامج تعليمية محددة لتوجيه أسئلة خاصة تتعلق بعلم النفس والاجتماع ، وترسل الاجابات على هذه

الاسئلة الى مقر المخابرات فى أمريكا » كما جاء فى الاهرام بتاريخ ١٩٦٧/٣/٢٢ نقلا عن وكالات الانباء • وهو نفس المنهج الذى تتبعه الجامعة الامريكية بالقاهرة ، فقد حدث ان أوفدت ثلاثة أساتذة هم ماكورد ولولب الامريكيين وفاخورى الاردنى الى محافظة أسوان للقيام بمسح اجتماعى وسيكلوجى لشـــعب المنطقة ولكن طبيعة الاسئلة أثارت الشكوك عند المسئولين فى المحافظة ومن ثم كان الموقف هو ان السلطات كتبت رسميا الى الجامعة تقـول انه ينبغى أن يرجع الاساتذة والطلبة الوافدون الى الجهات المسئولة فى المحافظـة قبل وبعد توزيع الاسئلة على العينات البشرية المطلوبة وذلك حتى يتحقق لنا نوع من الاشراف القومى على الابحاث التى تقوم بها جامعة أجنبية داخل حدودنا • ولكن الجامعة الامريكية رفضت هذا الطلب العادل من جانب السلطات المصرية التى لم يكن أمامها ـ والحالة هذه ـ أن ترفض بدورها الجولات المريبة للطلبة والاساتذة الامريكيين بين عمال السد العالى وشركة كيما • ان وحدة المنهج بين جامعتى بيروت والقاهرة الامريكيتين مصدرها واحد هى وحدة الادارة العليا التى يتبعانها فى واشنطن •• والجامعة الامريكية فى أى بلد عربى ليست الا أداة تنفيذية فى أيدى سادتها فى الولايات المتحدة • فقد حدث ان اهتمت الجامعة الامريكية فى القاهرة بدراسة التاريخ المصرى الحـديث اهتماما أثار الريبة الشـديدة ، اذ بدأت تتصـل ببعض الشخصيات السياســية من رجـال ما قبل الثورة لتحصـــل على مذكراتهم كما بدأت تتصل بعائلات بعض الشخصيات التى اصبحت فى ذمة التاريخ لتحصل أيضا على مذكراتهـــم •• ولما كان الامر يتصل مباشرة بتاريخنا القومى فقد توجهت الجهات المسئولة الى ادارة الجامعة الامريــكية بالقاهرة بخطاب يقـول « اننا لا نرفض التعاون العلمى بل نرضى به ، ولكننا نرى ان يكون هذا العمـــل المشترك بين اساتذة التاريخ المصريين والبـــاحثين الامريكيين تحت اشراف جامعة القاهرة » •

وقد ردت رئاسة الجامعة برفض الاقتراح ، وان لم تسحب المشروع ، بل ضاعفت نشاطها عن طريق المكتبة التى حشدتهـــا بمختلف المراجع الامريكية ، وممر الفنون الذى يسرت فيه عرض لوحات الفنانين المصريين ، ودعوة بعض ادباء الغرب للالتقــــاء بالمثقفين المصريين ٠

وبالرغم من ان تقرير لجنة الطلبة بالجامعة الامريكيـــة فى بيروت ينطوى على اتهام جميع الجامعات الامريكية خـارج الولايات المتحدة ومن بينها الجامعة الامريكية فى القاهرة ، الا اننا نضيف أيضا ما أعلنه الدكتور ماكلين مدير الجامعة الامريكية بالقاهرة من ان هذه الجامعة قد تلقت عام ١٩٥٩ من حكومة الولايات المتحـــدة منحة مقدارها ٥٠٠ر٠٠٠ دولار لتوسيع نطاق منشآتها « وســتؤخذ اموال هذه المنحة من ارصدة برنامج الامن المتبـــادل الامريكى ٠ ويعتبر هذا الامر من جانب حكومة الولايات المتحدة جزءا ســارى المفعول لتعزيز المعاهدة الامريكية خارج الولايات المتحدة (كمـــا جاء فى نشرة الانباء رقم ١٥٧٣ لمكتب الاســتعلامات الامريكى) كذلك اذيع عام ١٩٦٤ ان ثلاثة معـــاهد امريكية للتعليـــــم فى الشرق الاوسط سوف تتسع ويزداد نشاطها « بالمنـــح التى ستقدم اليها من وكالة التنمية الدولية « وهذه المعاهد هى الجامعـة الامريكية فى بيروت والكلية الامريكية فى بيروت والجامعة الامريكية فى القاهرة وهى معاهد خاصة انشـــئت منذ زمن طويل وتتلقى المساعدات من الهيئات فى الولايات المتحدة « ومن بينها مؤسســة فورد » وقد افاضت الصحف الامريكية منذ شهور فى ايضـــاح العلاقات التمويلية بين هذه الهيئات وبين وكالة المخابرات المركزية فهى اما انها تساهم بجزء من المبالغ المدفوعة ، أو تقــــوم بدور السمسار أو القومسيونجى الى غير ذلك من الشرايين التى تنبع من المخابرات اولا ثم تصب فى النهاية عند الجداول التى تحمل لافتات

ثقافية « خاصة » و « غير تجارية » . وان لم تنس هذه اللافتات وظيفتها الاصلية فى الوقت المناسب فتكشف الجامعة الامريكية فى بيروت عن طبيعتها الحقيقية فتفصل ١٣ طالبا عربيا فى نوفمبر ١٩٦٠ لاشتراكهم فى مظاهرة من اجل الجزائر « وقد وصف وزير التربية اللبنانى الجامعة الامريكية فى استجوابه بالبرلمان بانها دولة داخل الدولة » .

ولما كانت وكالة المخابرات المركزية تعمل بموافقة لجان الكونجرس الكاملة التى انشئت لمراقبة المخابرات وعملياتها فيما وراء البحار اى ان عملياتها جزء من السياسة العامة ـ التى لا تعلن مطلقا ـ لحكومة الولايات المتحدة (ريتشارد هاروود ـ الاهرام ١٩٦٧/٣/٦) وبالتالى فان تستر هذه الجامعات وراء العبارة التقليدية « معونات حكومية » أو « معونة هيئات خاصة » لم تعد تضلل أحدا من المثقفين العرب .. الا هذا النفر الذى تجاوز مرحلة « الشبهة » أو حسن النية » الى مرحلة العمالة المباشرة كأن نرى اسما معينا يعمل مديرا لمؤسسة فرانكلين فى بيروت ، ورئيسا لقسم اللغة العربية بالجامعة الامريكية هناك ، ومشرفا ماليا على مشروع القاموس الذى تموله فرانكلين بالاشتراك مع بعض الهيئات والحكومات الرجعية (الامريكية) فى كل من المشرق والمغرب العربى .. كل هذه « المناصب » الامريكية تجعل من صاحب هذا الاسم ممثلا مباشرا للمصلحة الامريكية فى الشرق الاوسط على الصعيد الفكرى لانه اولا واخيرا « موضع ثقة » اكبر الجهات المسئولة عن توجيه حصان طراودة الاستعمارى فى حياتنا الثقافية . وليس هذا الاسم او ذاك الا نماذج لهذا النفر من المثقفين العرب الذين ارتبطت مصالحهم نهائيا بقواعد الاستعمار الفكرى لبلادنا . فالسمة المشتركة بينهم جميعا انهم ضالعون فى تنفيذ المخطط الامريكى لمعركة الفكر فى الجبهة العربية . والسمة الاخرى هى انك تجدهم على

اغلفة المجلات المشبوهة ، والكتب الزهيدة الثمن ذات الورق الفاخر، ومجلس ادارة المؤسسات السخية فى الدفع . ودائر التعليم الوافد من وراء البحار .. كل هذه المناصب مجتمعة فى وقتواحد. فكيف يمكن لهذا النموذج من « المواطنين » ان يرفع عينه فى وجه « السيد الاجنبى » أو على أقل تقدير ، كيف يمكن ان يخدم الثقافة الوطنية ، وقد تأقلم اجتماعيا واقتصاديا وذهنيا بأجهزة التكييف الامريكية ؟ .

اننا حين نقرأ فى الصحافة الامريكية هذه الايام عن تمويل المخابرات الامريكية للمعهد الافريقى الامريكى والجمعية الامريكية للثقافة الافريقية وهيئة التبادل الثقافى الحكومية . والتبادل الثقافى مع افريقيا (ومجلتنا افريكا ريبورت وامريكان فورام) والمنظمة العالمية لحرية الثقافة (حوار – انكاونتر – بريف) وجمعيات الشبان والشابات المسيحية والاتحاد الدولى للشباب الاشتراكى ومكتب الصحافة للطلبة الآسيويين وجمعية اصدقاء الشرق الاوسط .. حين نقرأ هذه العناوين التى تهمنا نحن سكان هذه المنطقة من العالم ، نضع ايدينا فى حقيقة الامر على الاخطبوط الرهيب لشبكة المخابرات الامريكية ، الاخطبوط الذى يشير بقوة وحسم الى دلالتين رئيسيتين : أولاهما ان الحرب الفكرية التى يشنها الاستعمار الامريكى على المنطقة العربية قد ازدادت ضراوة خلال السنوات الخمس الاخيرة اى بعد أن اختطت بلادنا منهج التطور الاشتراكى طريقا لحياة شعبنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فان اتخاذ هذا المنهج استتبع بالضرورة تقليم اظافر الرجعية المحلية المرشحة دائما –فى ظل بعض الظروف– ان تقوم بدور العمالة للاستعمار أو التحالف معه سواء تم ذلك عن طريق الطبقات التى اضيرت مصالحها الاجتماعية فعلا ، او عن طريق ممثليها الفكريين من المثقفين الضالعين معها .

اى أن غياب الاسس الاجتماعية الصالحة لازدهار الفكر الرجعى قد تسبب فى حماس الامدادات الاجنبية الواردة من الخارج ٠٠ غير ان هذه الامدادات نفسها ما كانت لتستقر أو تنتعش لولا انها وجدت « مناخا » مهيأ لاستقبالها بواسطة هذا النفر الذى ارتبطت مصالحة بالامداد الاجنبى ، واما بواسطة الرواسب الفكرية المتبقية مع انقاض الطبقات المنهارة ٠ وأخيرا بواسطة التخريب المتقن لثقافتنا الوطنية الذى كان يتم داخل الاجهزة الرسمية كما جاء فى البيان الفاجع لوزير الثقافة فى مؤتمر الكتاب العربى ٠

تنظيم سرى لتهويد المسيحية

المسيحية « الحقيقية » لا علاقة لها بما يقال على ألسنة كبار رجال الدين المسيحى فى العالم ٠ الانجيل « الحقيقى » لا علاقة له بكل ما يتردد بين شفاه المسيحيين على ظهر هذا الكوكب . هذه الارض التى نعيش عليها ان هى الا مملكة الشيطان ٠ والخلاص من الجحيم لم يكتب الا لقلة مختارة هى سر الأسرار فى كتاب «يهوه» ملك الملوك ورب الأرباب ٠

هذه بعض الشعارات التى حملت لواء ذيوعها وانتشارها حوالى عام ١٩٥٦ مجموعة من الفتيات الجميلات اللائى لا تزيد اعمارهن عن العشرين عاما ٠٠ فكن يدخلن البيوت فى القرى والاحياء الشعبية بالمدن ، وفى يمينهن « الكتاب المقدس » وفى يسارهن بعض الكتب الاخرى التى طبعت باللغة العربية وان تم طبعها كما يقول الغلاف فى الولايات المتحدة الامريكية (١) ٠

وكانت هذه الكتب تحمل عناوين تقول « ليكن الله صادقا »

---

(١) أرجو مراجعة التحقيقات الصحفية التى نشرتها مجلة « صباح الخير » فى ٦ و ١٣/٤/ ١٩٦٧ ومجلة « المصور » فى ١٣ /٤/١٩٦٧ .

و « فى هذا خلاصنا »٠. وكانت الفتيات الجميلات بجنسياتهن المختلفة ولغاتهن المتنوعة يصحبن معهن بعض الفتيات او الشبان المصريين ، ويرسمن على شفاههن ابتسامة دائمة وهن يستأذن فى دخول البيت المصرى « لسماع كلمة الله » ٠

ثم تنبهت الكنيسة المصرية الى أن شيئا ما غريبا يحدث ، فتعقبت هذه الاقدام الجريئة التى يزعم اصحابها انهم لا ينشرون دينا جديدا ، وانما هم يكشفون الغطاء عن جوهر الدين القديم ، الدين الذى أسسه « يهوه » أول الآلهة وآخرهم كما يقول أحد الكتب التى تقدمها مجانا الفتيات الجميلات ٠

والمعروف ان يهوه ٠ هو التسمية اليهودية لله ، كما جاءت فى التوراة . واستطاعت الكنيسة المصرية ان تعرف ان هناك « مركزا عاما » لهذه الجماعة الوافدة من امريكا تتخذ لنفسها اسم « برج المراقبة » فى القاهرة وكان الاعضاء الاجانب والمصريون فى هذا البرج يسمون انفسهم « بشهود يهوه » رسالتهم المعلنة هى التبشير بفساد الحكم والحكام فى ظل جميع الانظمة الاجتماعية المأخوذ بها فى اى مكان ، وان البشرية المعاصرة آلت نهائيا الى « ملكية ابليس» والخلاص الوحيد المنتظر هو للذين اختارهم يهوه العظيم ٠

وفى ٢ يونيو ١٩٦٠ صدر قرار من وزير الشئون الاجتماعية يحمل رقم ١٥٥ « بشأن حل جمعية شهود يهوه ــ برج المراقبة للكتاب المقدس ــ وتصفية أموالها وذلك بعد ان تأكد لسلطات الامن ان هذه الجمعية تمارس نوعا من العمل السياسى غير المشروع وتتستر فى اخفاء نواياها الحقيقية خلف « الدين » وكان اشتباه رجال الامن والكنيسة معا هو أن الجمعية هى احدى المحاولات التى تبذلها الصهيونية العالمية من أجل « تهويد المسيحية » وبالتالى ايقاع البسطاء من المؤمنين فى شراك الدعاوى الاسرائيلية ٠

وقد تأكدت هذه الحقيقة الآن بعد أن اكتشفت «جهات الأمن

أنها لم تحمل عصاها وترحل عن ديارنا عام ١٩٥٠ بل هي قد أعادت تنظيم نفسها تنظيما سريا تم القبض على بعض أفرادها بتهمة «مزاولة نشاط الجمعية التي كان قد صدر قرار بحلها» . . وقد وقف الاعضاء الاثنى عشر المقبوض عليهم أمام المحقق يعترفون بعضويتهم « المبرج » وانهم يجتمعون بصورة دورية ويجمعون من بعضهم الاشتراكات وان المقر الرئيسى للجماعة فى بروكلين بالولايات المتحدة . وما لم تعترف به الاعضاء ان شهود يهوه «احدى المراكز الثقافية التى ترفع لافتة المسيحية بينما هى تسمح لوكالة المخابرات المركزية بالاسهام فى تمويلها كما جاء فى مقال جيفرى وولف فى الهيرالد تربيون « الاهرام ١٩٦٧/٢/١٤ » .

والامر من الناحية القانونية فى أيدى سلطات لتحقيق ، ولكن الذى يعنينا هنا هو الدلالة السياسية الخطيرة من زاويتين : الاولى هى استخدام ما يدعى بالثقافة المسيحية التى تصل بيوتنا اما عن طريق الفتيات الجميلات « شهود يهوه » واما عن طريق الرايد «مرسلات جمعية اصدقاء الشرق الاوسط فى بيروت» واما عن طريق كنائس هذه الجماعة التى ماتزال تمارس نشاطها المريب تحت اسم « السبتيين » أو الاوفتست وهى جماعة تقصر رسالتها على الدعوة الى اتخاذ يوم « السبت » يوما للعبادة بدلا من الاحد . وهى دعوة شبيهة الى درجة كبيرة بدعوة شهود يهوه الى تسمية الله باسم اليهودى (يهوه) فالقاسم المشترك بينهما هو (تهويد المسيحية) ومن زاوية اخرى فان صدام هذه الجماعات المباشر مع قوانين البلاد للدرجة التى معها يخرجون على هذه القوانين فينشئون تنظيما سريا يجندون له أبناءنا المضللين وبناتنا المخدوعات ..

ان هذه الظاهرة نعنى ان التستر والتخفى لم يعد هو الاسلوب الوحيد لمعركة الاستعمار الفكرى معنا ، بل هو على استعداد لان

يقاوم بالفعل لا بالكلمة وحدها ، وان يناضل بالحركة المنظمـــة لا بالفكر المجرد ٠

واذا كنا قد تنبهنا مؤخرا الى ضراوة المعركة الفـــكرية التى يشعلها الاستعمار فى جبهات متعددة وفى وقت واحد ، فان علينا ان نتنبه اكثر فاكثر الى كافة الاقنعة والاسلحة التى ما يزال ينجح فى استخدامها وتوظيفها ٠ فجماعة شهود يهوه او الســـبتيين لايدخلون الى عقل المثقف المسيحى فى مصر عن طريق الدين ، وانما عن طريق الثقافة ٠ انهم يرصعون دعاواهم لا بكلمات المسيح او بولس أو يوحنا ، وانما بكلمات نيتشه وشوبنهور وشبنجلر ٠٠ ولا مانع لديهم من حفلات الرقص وسهرات الشراب والكتاب المقـدس مفتوح بين الاذرع والسيقان والكئوس ! ! هـذا ما حـدث فى اجتماعاتهم فى البيوت أو فى « البرج » وما يزال يحدث فى كنائس الادفنتست بعد« العظة » التى يلقيها أمهر القساوسة الامريكيين ، خاصـــة اذا تم اختيـــارهم من بين الزنوج الذين تقدمهم زوجاتهم البيضاوات الى جمهور المصلين قبل البدء فى الصـــلاة والحث على استبدال يوم الاحد بيوم السبت لعبادة الله ٠

الاستعمار لا يغير جلده

ان ظاهرة « الاستعمار الجـديد » فى المبـدان الاقتصـادى والسياسى لها جانبها الثقافى الملازم للظاهرة تلازما تلقائيـا ٠٠ فالحرب الفكرية التى نشهدها الآن لا تقوم على أساس « التدخل فى شئوننا الداخلية » الثقافية بل هى تربط المثقف العربى بعجلتها عن طريق التيسيرات المذهلة فى تقـديم المراجـع الامريكية ــ العلمية والادبية ــ واصدار الموسوعات والمعاجم التى تربط الثقافة العربية بالعجلة الامريكية آمادا طويلة من الزمن. خاصة وان المكتبة العربية قد خلت لظروف عديدة من المراجـع والموســوعات والمعاجم التى

لا سبيل الى الشك فى مضمونها ٠ ان المراجع التى تحتشد بهـــا رفوف المكتبة الامريكية فى القـــاهرة بأقلام اســـاتذة هارفارد وكاليفورنيا وبنسلفانيا اشهر الجامعـــات التى تمولهـــا وكالة المخابرات المركزية ، ولكننا فى المقابل لا نجد المراجع الوطنيـــــة البديلة أو المراجع الاجنبية التى لا يرقى اليها الشك ٠ ويســتخدم الاستعمار الثقافى الجديد أحدث منجزات التــــكنيك والعلم فى الترويج للقيم والافكار المعادية لتطورنا الاشــتراكى ٠ وهو ينتهز بطبيعة الحال فرصة الضعف التى تشتمل عليها المرحلة الاولى من نمو الفكر الاشتراكى على ضوء التجربة المحلية البازغة فى بلادنا كذلك فهو ينتهز فرصة ان اجيالا عديدة من رجال الفكر العربى المعاصر قد حصلوا علومهم ومناهجهم بين أحضان الجـامعة الامريكية فى بيروت ، او الجامعات الأمريكية المشبوهة فى الولايات المتحدة ٠

من احدث الافلام التى أخرجها فرانسوا تريفور خارج فرنسا، الفيلم الامريكى « ٤٥١ فهرنهيت » وهى درجة الحرارة التى تحترق عندها الكتب ٠ وهو الفيلم الذى يثأر لشرف الثقافة الانسانية من جوبلز الالمانى ، ومكارثى الامريكى ٠٠ فيصور الصراع بين همجية النازى والمكارثية وبين الحضــارة الانســانية ممثلة فى الكتاب ، وينتهى بالمتفرج الى أن النصر النهائى سوف يكتب للثقافة والانسان٠ فهل معنى ذلك ان الاستعمار الامريكى يسلم بهذه البديهيـــــة الصحيحة ؟ ام ان مرحلة الاستعمار الجديد استوجبت شكلا جديدا لميادين القتال الثقافية ، فلم تعد المكارثية الجديدة تحرق الكتب ، بل تصدرها ؟ أغلب الظن ان الاستعمار لم يغير جلده ولكنه يغير من أساليبه فى الدفاع والهجوم فحسب ٠ ولقد رأى أخيرا أن محـاربة الثقافة بأسلحتها ــ وهى الكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئيـــة ــ امضى أثرا من درجة « ٤٥١ ف » التى تحترق عندها الـــكتب ، وأخطر فعالية من مسدس جوبلز الذى كان يضع يده عليه كلمـا سمع كلمة « ثقافة » ٠

الفصل الثالث

نموذج تفصيلي من خطة العدو

بصدور قرارات يوليو ١٩٦١ كانت الثورة العربية المعاصرة نجتاز أخطر نقاط تحولها التاريخية ·· فقد وضعت هذه القرارات العالم العربى بأسره أمام أعظم مسئولياته على الاطلاق · مسئولية التغيير الاجتماعى العميق والشامل لمجرى الحياة السياسية والاقتصادية للانسان العربى الحديث · ولقد بان المسار الثورى للتجربة المصرية نموذجا حيا واضحا لالتحام ثورة التحرر الوطنى بالثورة الاجتماعية ، بل ان هذا المسار كان فى ذاته اضافة الى نظرية الثورة حيث تفضى قضية التحرر الوطنى افضاء تلقائيا الى قضية العدل الاجتماعى فى ظل التقدم التكنولوجى ، وتعاظم التجربة الاشتراكية العالمية ، وظهور العالم الثالث كقوة دولية لها ثقلها فى موازين الحرب والسلام ·

فى هذا الوقت كان المثقفون فى أنحاء المنطقة العربية ، وفى غالبيتهم يعانون قسوة مرحلة الانتقال وضراوة نقطة التحول ·· فهم على المستوى الفكرى المحض قد « فوجئوا » بهذه الامكانية الثورية

الجديدة التى تزعزع أركان « نظرياتهم » المسبقة والجاهزة ٠٠ سواء كان هؤلاء المثقفون ثقافة ليبرالية تنشـــد الطريق الرأســـمالى التقليدى للتطور ، أو كانوا من المثقفين ثقافة اشتراكية على اختلاف درجاتها ممن ينشدون الطريق التقليدى لبناء الاشـــتراكية اى أن « أزمة » موضوعية حقيقية نشبت داخل المثقف العربى ، هى أزمة التناقض بين « الواقع » و «المثال » وقد انعكست هذه الأزمة على علاقة المثقف بالسلطة السياسية من ناحية ، وبانتاجه الفـكرى والأدبى ، أى بقرائه من ناحية أخرى ، وسادت من ثم موجة من التشاؤم الأسود فى الأدب والفن دعمتها الاتجاهات الوافدة من الغرب تحت عناوين « العبث » و « اللامعقول » ، كما سادت موجة موازية لها من الفوضى النظرية المخيفة فىالفكر الاجتمـــاعى والاقتصـــادى والسياسى ٠٠ وظللت الموجتين سحابة من فقدان الثقة بين الأطراف الثلاثة : المثقف والقارىء والسلطة ٠

وفى هذا الوقت بالذات دعت « المنظمة العـالمية لحرية الثقافة » الى « مؤتمر الأدب العربى المعاصر » فى روما ٠٠ ودعت الى الاشتراك فيه مجموعات متباينة من الوفود والمراقبين ٠ ولم يكن هذا المؤتمر الذى تم انعقاده فى روما خلال عام ١٩٦١ أول مظهر لنشاط هـذه المنظمة فى المنطقة العربية ٠ فقد سبق لها أن نظمت مؤتمرين فى القاهرة خلال عامى ١٩٥٩ و ١٩٦٠ كان موضوع المؤتمر الأول « المشاكل الادارية » وموضوع المؤتمر الثـــانى « تخطيط المدن فى العالم العربى»٠وفى عام ١٩٥٩ أيضا عقدت مؤتمرا فى تونس حول « الجامعة ودورها فى المجتمع » ٠ وفى عام ١٩٦١ عقدت فى الخرطوم مؤتمرا آخر موضوعه « بين التقليد والتجديد » ٠ وكانت هـــذه المؤتمرات جميعها تتم تحت رعاية فريق من المثقفين العرب ، فكان فرع المنظمة العالمية لحرية الثقافة فى القاهرة تحت رئاسة الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، وفرعها الآخر فى بيروت تحت رئاسة الدكتور

جميل جبر ٠ ولم يقتصر نشاط المنظمة على المنطقة العربية وحدها ، بل كان هذا النشاط مجرد دائرة ضمن الدوائر العديدة التى أنشأتها فى العديد من الدول الناشئة فى آسيا وافريقيا ، كذلك المؤتمر الذى عقدته المنظمة فى رانجون عام ١٩٥٥ تحت عنوان « الحريات الثقافية فى آسيا » ٠ وفى عام ١٩٥٧ عقدت مؤتمرا فى طوكيو لمناقشة « مشكلات النمو الاقتصادى » ، وفى نفس العام فى طوكيو أيضا تم انعقاد المؤتمر الآخر عن « التطور الاقتصادى والتبدلات الثقافية » ٠ وفى عام ١٩٥٩ عقدت المنظمة مؤتمرا فى أباداان « افريقيا ودينامية التغير » ٠ وفى عام ١٩٦١ عقدت مؤتمرها فى دلهى بعنوان « نظرة أخرى على الديمقراطية فى آسيا » وفى نفس العام عقدت مؤتمر فريتاون « أهل الفكر فى غربى أفريقيا » ٠ وبعد عامين ، أى فى ١٩٦٣ عقدت فى فريتاون للمرة الثانية مؤتمرا موضوعه « الأدب الأفريقى والجامعات » ٠ وفى نفس العام عقدت مؤتمر مانيلا تحت عنوان « الدين والتقدم فى آسيا الحديثة » ٠ وذلك غير المؤتمرات التى عقدتها فى أكسفورد ببرلين وهامبورج وغيرها من العواصم الأوروبية ، وان كانت القضايا التى طرحتها المنظمة فى هذه المؤتمرات قضايا آسيا وافريقيا ٠

ولقد آثرت التركيز على نشاط « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » التى تتخذ لها مقرا ثابتا فى باريس لأنها أبرز المؤسسات الثقافية « الدولية » التى كانت تنال قدرا من الاحترام عند فريق واسع من المثقفين فى العالم ، ثم تبين أخيرا أنها ليست الا واجهة مضللة لنشاط وكالة المخابرات المركزية الامريكية وانها ليست الا احدى أدوات الاستعمار الثقافى الامريكى ٠٠ سواء ما عرفناه عن مقالات كبرى الصحف الأمريكية نفسها مثل النيويورك تايمز ، أو ماعرفناه من نصوص استقالات أكبر المفكرين الذين تعاونوا مع مجلات المنظمة مثل الشاعر والناقد الانجليزى ستيفن سبندر رئيس تحرير

« انكاونتر » الانجليزية آثرت التركيز على نشاط هذه المنظمة بالذات أيضا لأن الدوائر التى امتد اليها هذا النشاط تكاد تقتصر على هذه المنطقة الثورية من مناطق العالم الفوارة بالثورة وأقصد بها الرقعة المترامية بين قارتى آسيا وأفريقيا . فلاشك أن « توجيه » نشاط المنظمة الى هذا الجزء من العالم يحدد الهدف الاستراتيجى الذى تضمره المنظمة . كما أن « الموضوعات » التى يثيرها نشاط المنظمة فى مؤتمراتها ومجلاتها ونشراتها تحدد طبيعة المهام الرئيسية التى تأخذ الجهات الممولة للمنظمة على عاتقها عبء القيام بها .

ومن واقع المجلدات التى تحمل كلمة « أعمال مؤتمر .. » أو عبارة « وثائق عن .. » أو « مجلة .. » أو « نشرة .. » مما أصدرته المنظمة العالمية لحرية الثقافة يمكن لنا أن نحدد فى نقاط موجزة هذه الملاحظات :

١ ـ ان المنظمة بدأت نشاطها الفعلى عام ١٩٥٥ أى فى ذلك التاريخ الذى بدأ فيه الاستعمار يرتدى ثيابه الجديدة .

٢ ـ ان المنظمة تضم غالبية كبرى من الماركسيين المرتدين فى أوروبا وأمريكا ، والاشتراكيين الديموقراطيين فى الأحزاب الغربية، ثم صنائع فرانكلين والجامعات الأمريكية فى الشرق الأوسط .

٣ ـ ان المنظمة تتخذ من شعار « حرية الفكر » مدخلا للهجوم على المجتمعات الاشتراكية ، والدفاع عن المجتمعات البرجوازية .

٤ ـ ان المنظمة تنفق فى سخاء على قرابة عشرين مجلة ثقافية كبرى بمختلف اللغات فى جميع أنحاء العالم ، تشكل هذه المجلات فى مجموعها منبرا عالميا للفكر اليمينى فى الاقتصاد والسياسة الدوليين .

أقول : ان هذه المنظمة عام ١٩٦١ عقدت مؤتمرا للأدب العربى

المعاصر فى روما • ويبدو أن هذا المؤتمر لم يكن الا « مناسبة شرعية » لتنسيق الجهود التى تبذلها المنظمه فى « خدمة » الثقافة العربية ! اذ أنه حوالى ذلك التاريخ كانت المشاورات تجرى فى الخفاء لاصدار مجلة فكرية ذات وزن ثقيل باللغة العربية • وقد كان رأى فرع المنظمة فى لندن هو اختيار توفيق صايغ المدرس بجامعة كامبريدج رئيسا لتحرير هذه المجلة على أن تكون بيروت مركزها الرئيسى • وقد تم اختيار توفيق صايغ لعديد من الأسباب أهمها أنه « وجه مضىء للثقافة العربية » لم يتلوث قط عند مواطنيه بأية شوائب خاصة وأنه فلسطينى ينتمى الى أسرة يعمل معظم أفرادها فى خدمة القضية الفلسطينية • أما رئاسة المنظمة فى باريس فقد كان لها رأى آخر فيما يتعلق بالمسئول العربى عن المجلة ، اذ اختارت لهذه المهمة يوسف الخال لعدة اعتبارات أهمها أنه « شديد الولاء للغرب » بأصوله السياسية المنتمية الى الحزب القومى السورى والمعادية لأبعد حد لكل ما هو عربى على الصعيد القومى ، وكل ما هو ثورى أو تقدمى على الصعيد الاجتماعى • وبالرغم من تقدم المباحثات مع يوسف الخال الذى قبل التعاون مع توفيق صايغ كحل وسط بين اختيار المنظمة فى لندن واختيارها فى باريس ، الا أن هذه المباحثات عادت فتعثرت أمام نقطتين : الأولى هى اصرار يوسف الخال على أن تصدر المجلة دون أن يوضع عليها كليشيه « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » باعتبارها صاحبة المجلة لأن ذلك يسىء الى أهداف المجلة قبل صدورها لما يشوب هذه المنظمة عند المواطن العربى من شبهات ، وقد أصر توفيق صايغ من ناحيته على ضرورة وضع اسم المنظمة حتى يكسب ثقة القارىء بما يتضمنه اعلان الاسم الحقيقى لجهة التمويل من مصارحة ، ومكاشفة تبعد عن المجلة شبهة الخداع والتضليل • أما النقطة الثانية فكانت على المستوى الشخصى وهو : من تكون له الكلمة العليا والنهائية فى تحرير المجلة؟

ولم يتنازل صايغ ولا الخال عن أن تكون له هذه الكلمة التى تخول له سلطات واسعه ذات أبعاد مختلفة · وهنا تنتهى « معلوماتى » التى استقيتها من طرف واحد ـ للحقيقة والتاريخ ـ هو توفيق صايغ · وما حدث بعد ذلك يعرفه الجميع لانه « وقائع » لا دخل فيها للآراء أو وجهات النظر ، فقد صدرت مجله « أدب » برئاسه يوسف الخال فى شتاء ١٦٦٢ ثما صدرت « حوار » بعدها بقليل برئاسة توفيــق صايغ فى نوفمبر ١٩٦٢ · وقد اردت من سرد هذه المعلومات أن أقول أن مؤتمر روما عام ١٩٦١ يحمل فى جوهره عدة دلالات أهمها : أنه كان « مناسبة » لتنسيق الجهود المبذولة من وراء ستار لتأســيس منبر ذى وزن ثقيل يحمل وجهه النظر الفكرية للمنظمة الى العـالم العربى · ولم يكن المؤتمر كما قلت أول نشاط للمنظمة فى الشرق العربى فمنذ عـــام ١٩٥٩ والمؤتمرات المختلفة تتوالى فى البلدان العربية تحت رعاية المنظمة وممثليها من العرب ، وكذلك نشرتهـــا « أضواء » التى تطبع فى باريس وتصل بالبريد الى نخبة من رجال الفكر والاعلام ، بالاضافة الى « مطبوعات أضواء » من الكتب المحققة لرسالة المنظمة مثل كتاب « اليقظة الكبرى من الاستعمار الى الحرية » لجون ستراتشى وترجمة رواد طربيه ، وكتاب « خروتشيف والثقافة » من ترجمة جوزيف الصائغ ، وكتاب « أفريقيا والديموقراطية » من تأليف ريتا هندن وترجمة خالدة سعيد · ليس المؤتمر أول نشاط للمنظمة ، ولكنه فى رأيى ، كان أخطر بادرة لما قامت به المنظمــة بعد ذلك بعام واحد · فقد ضم المؤتمر ـ على وجه التقريب ـ معظم الاقلام والعقول التى شاركت فى تحرير « أدب » و «حوار» وغالبيتهم تنتمى الى أن أصول قومية سورية كيوسف الخال وعلى أحمد سعيد « أدونيس » أو الى أصول ماركسية ارتدوا عنها مثل بدر شـــاكر السياب أو الى ارتباطات بمؤسسات أمريكية فى الشرق الأوسط كالجامعة الامريكية وفرانكلين كما هو الحال فى رئيس الوفد المصرى

لدى المؤتمر الدكتور ابراهيم بيومى مدكور فقد كان ممثلا للمنظمة فى القاهرة وواحدا من أهم أعمدة فرانكلين بالقاهرة أيضا وفى نفس الوقت ٠ فماذا حدث فى هذا المؤتمر ؟

١ ــ هاجم بضراوة وعنف التراث العربى والحضارة العربية٠ ومع تباين النغمات والاتجاهات فقد سادت نغمة رئيسية هى عقم هذا التراث وخواء هذه الحضارة وأن خلاصنا الوحيد هو «معاصرتنا» الحقيقية لأوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية ٠ وذلك عن طريق الارتباط المادى والروحى بحضارة هذه المنطقة العظيمة من عالم اليوم ٠ ولاشك أن المؤتمر لم يعدم أصواتا معارضة لهذا الرأى ، ولكنها بلغت من الخفوت درجة تقارب الصمت ، أو هى على أحسن الفروض قامت بدور « النشاز » فى عزف اللحن الرئيسى ، أو على وجه آخر قامت بدور تضليلى مزيف هو دور « تعدد الآراء »واختلافها وصراعها «الديمقراطى» مع بعضها البعض ٠ الا أن هذه الديموقراطية الموهومة كشفت عن زيفها حين رفضت ادارة المؤتمر أن تضم محاضرة محيى الدين محمد عضو الوفد المصرى (الذى ضم الدكتورة عائشة عبد الرحمن والدكتور ابراهيم بيومى مدكور) لما تضمنته المحاضرة من تقييم موضوعى أمين للتجربة الثورية فى المجتمع المصرى وما انتهى اليه المحاضر من أن الاشتراكية هى الحل الناجز لتعاسة الشعوب المتخلفة ٠ رفضت رئاسة المؤتمر أن تدرج المحاضرة للمناقشة العامة كغيرها من المحاضرات ، كما رفضت ادارة المؤتمر بعد ذلك أن تضم المحاضرة الى المجلد الذى قامت المنظمة بطبعه فى « منشورات أضواء » ٠٠ وهكذا كانت المنظمة تكشف عن أنيابها السامة التى أخفتها فى أقنعة من ذهب ٠

٢ ــ هاجم المؤتمرون بضراوة مبدأ الالتزام فى الأدب والفن واتفقوا فيما يشبه الاجماع على أن الالتزام « عقيدة شيوعية » على

« الاحرار » مقاومتها كأى مبدأ شيوعى آخر يسىء الى حرية الانسان وسيادة الفرد • وتحول المؤتمر من هذه النقطه الى مهرجان عــداء للاشتراكية • فكانت التهم الى الاتحاد السوفيتى وبقية المجتمعات الاشتراكية وبلدان العالم الثالث التى تختط لنفسها طريقا مستقلا للتطور الوطنى • وهكذا كانت « حرية الأديب » و «الأديب والدولة» و « الأديب والمجتمع » هى العناوين الرئيسية لهاجمــة الالتزام فى الادب والفن التزاما حرا بقضايا الانسان المعاصر والمجتمع الحديث • واستغل المؤتمر بذكاء نادر الأزمات الشخصية لبعض المثقفين العرب فقام بدر شاكر السياب — على وجه التحديد — بالهجوم على الالتزام والملتزمين ، وبدر هو المثقف الاشتراكى « السابق » •• على أن المؤتمر لم يستغل هذا الذكاء حين جعل من يوسف الخال وعلى أحمد سعيد أبواقا معادية للتراث العربى والقومية العربية لأنهما — على وجـه التحديد أيضا — من فلول القوميين السوريين المعادين روحا ودمـا وفكرا وتاريخا للثقافة العربية والحضارة العربية والأمة العربية (١)•

على أن المؤتمر — وأكرر القول — كان مجرد مقدمة لما هـــو أخطر •• مقدمة لتأسيس منبر ذى وزن ثقيل فى الوطن العربى ، يحمل أيديولوجية الاستعمار الجديد الى المنطقة فى أكثر الأشكال بريقا ولمعانا حتى أنها — هذه الأشكال — قد استطاعت أن تحجب الرؤية الواضحة عن بصيرة الكثيرين من الكتاب الشرفاء •

ولقد يثار هنا سؤال : كيف يؤسسون هذا المنبر — وهـو مجلة « حوار » — وتصدر فى نفس الوقت مجلة « أدب » لصاحبها يوسف الخال • وهنا أعود الى الذكاء النادر الذى تتمتع به المنظمة العالمية لحرية الثقافة حين تركت الخال يصدر مجلته كيفما شـاء مادامت أهدافه تلتقى مع أهدافها ، ومادام هو لا يمانع فى أن تمد

---

(١) يقال الآن أن كليهما قد تطور من موقعه الفكرى السابق ، وليس المهم هو « الاعلان » عن هذا التطور بقدر « تجسيده » فى مواقف وأعمال .

له يد العون بصورة أو بأخرى تخفى عن العين المجردة • فهـــل حققت مجلة « أدب » حقا أهداف المنظمة الاستعمارية ؟ لنتصفح اذن بعض أعدادها •

فى العدد الأول كتب جبرا ابراهيم جبـــرا مقالا عن روايـة « ١٩٨٤ » لجورج أورويل • وبالرغم من أن اختيار روايه معادية للشيوعية كمادة لبحث أدبى هو عمل مشروع من حيث المظهر ، فان اتخاذها ركيزة فكرية لما هو أبعد هو العمل الذى يستحق منا وقفة قصيرة عند هذا المقال • يبدأ جبرا مقاله بعبارة يخطها ونســتون سميث بطل رواية أورويل « الحريه هى حريه القول أن اثنين زائدا اثنين تساوى أربعة • اذا سلمنا بذلك فالبقية تتبع » وهى العبارة التى يقرأها فيما بعد جواسيس « الأخ الأكبر » ليجدوا فيها دليلا على أن ونستون سميث يقترف ما يسمونه « جريمة فكر » • وجريمة الفكر فى عـــالم « ١٩٨٤ » أخطر الجرائم • وقد أقيم جهاز كامل لوقاية المجتمع منها هو جهاز « شرطة الفكر » • ويعلق كاتب المقال على هذه الفكرة بأنه فى حالة سيطرة « التنظيم السياسى » الواحد على المجتمع ، فان الفرد مطالب بأن « يلوى دماغه » ليثبت أن اثنين زائدا اثنين تساوى خمسة أو ثلاثة « حسب حـاجة الســـاعة » • ويستطرد من هذه النقطة الى القول بأن هذا النمط من الحيـــاة هو ما يسمى بالحكم المطلق « فالحكم المطلق ، حيث تسيطر فئة صغيرة (داخلية) على الكتل الشعبية باسم الشعب والديموقراطية لا بد له من تشويه مستمر مقصود للحقائق والتاريخ » • وهكذا تنقلب الامور رأسا على عقب ويصبح الحرب هو السلام ، والحـرية هى العبودية ، والجهل هو القوة « ووزارة التلفيق تدعى وزارة الحقيقة ، ووزارة التجسس والتعـــذيب تدعى وزارة الحب » • بالطبع اننا لا نستطيع أن نفصل أنفسنا عن « توقيت » المقال حيث تتبنى بعض الشعوب والحكومات العربية تجربة « التنظيم السياسى الواحد »

وتجربة « التوجيه الاقتصادى المخطط » الى غير ذلك من معالم التطور الاجتماعى نحو الاشتراكية ، وبالرغم من أن الرواية موضوع البحث تتناول التجربة السوفييتية بالتصوير الفنى فى ظل الستالينية ، الا أن الارتكاز عليها والانطلاق منها لتعميم الحكم بالدكتاتورية العمياء والشمولية القاتلة لحرية الفرد انما هو غمز مقصود من جانب الكاتب ضد النظم التقدمية فى المنطقة العربية ٠ والا فما هى المناسبة لتقديم أورويل بالذات ومن خلال هذه الرواية بالتحديد ؟ لنقرأ اذن مقالا آخر فى العدد الثانى من نفس المجلة تحت عنوان « **أزمة الجيل العربى الطالع** » لهشام شرابى أستاذ التاريخ بجامعة جورجتون بواشنطن – وهو فلسطينى الأصل – يقول ان « أزمة الجيل العربى الطالع فى أبسط مقوماتها ، قد تعرف بالصراع القائم بين الفعالية كقاعدة للعمل والعقلانية كقاعدة للأخذ بأسباب الشرعية بين السلطة اذ تتجمع شيئا فشيئا والحرية اذ تفقد مع الأيام أسسها السياسية والمؤسسية » ٠ ثم يحدد الكاتب معالم الأزمة التى يعانيها الجيل العربى الجديد فى ثلاث نقاط : الاقتلاع السيكلوجى ، وفقدان الايمان الأخلاقى والدينى ، والذهاب فى تقدير القيم كل مذهب ٠ يقول هشام شرابى « كانت حركة (الاخوان المسلمون) آخر ، وربما أول ، حركة أصيلة للبعث الاسلامى أطلعها هذا الجيل ٠ كان مقدرا لها أن تربح أو تخسر كل شىء ، لأنها تقدمت بحل مطلق لا يقبل المساومة » ٠ ومن ناحية أخرى « على أنقاض هذا العالم المتداعى ، لايزال المفكر العربى الطالع يرفض مواجهة الضرورات التى تنطوى عليها اعادة البناء ، فالمهمة الحيوية التى من شأنها تحديد معضلات وضعه الأساسية وتبيانها والتى هو وحده جدير باتمامها ، قد تركها لتلتقى الى حد بعيد ، على عاتق الباحثين الأوروبيين الذين تعتبر آثارهم مصدرا يكاد يكون وحيدا لمعرفة العربى لنفسه ولحاضره ولماضيه » ٠ أى أن الكاتب قد صور ضياع الجيل تصويرا أكاد أقول ميتافيزيقيا بحتا ٠٠ فالقيم التى يتحدث عنها ليست هى بالقطع

قيم الثورة العربية المعـــاصرة التى ينتمى اليهـــا الجيل بدرجات متفاوتة ، وانما هى القيم التى ورثتها الأجيال الأوروبيه فى الغرب عن تقاليدها الفكرية والفنية العــــريقة ٠ وهنـــا كان من الممكن أن نتساءل : وما رأى الكاتب فى ضياع الأجيـــال المعاصرة فى أوروبا وأمريكا ، وهو الضياع الذى يتخذ فى الآداب والفنــــون أســـماء صريحة مثل « العبث » و « اللامعقول » ، كما يتخذ فى الحياة سلوكا واضحا مثل حركة الخنافس ؟ هل هذه هى القيم « الثابتة » التى ينبغى على العرب الأخذ بها حتى يرتفعوا الى مســـتوى العصر الأوروبى ، أم أن الكاتب يقصد شيئا مختلفا ؟ يجيب الكاتب على ثلاث مراحل : أولا « أن الثورة حينما انتصرت انتصر معها المثال الأعلى لبناء مجتمــع جديد ٠ لقد رافق مفهوم الاصلاح الجذرى ، والتطوير الاجتمـــاعى الاقتصادى التام ــ أى مفهوم الدولة الخيرية ــ واقع الحكم الفردى المطلق » ٠٠ هذه هى القضية التى يلف البـــاحث ويدور ليصل اليها ، انها قضية « الحكم الفردى المطلق » الذى ترفضــه أوروبا الغربية وأمريكا ، وتأخذ به الدول الاشتراكية والحديثة النمو وهــو المعول الذى يحطم « كل القيم » ٠ ماذا أيضا ؟ « وما أظننى أذهب بعيدا اذا قلت ان الصلة ، ما أن تنقطع بين الحاكم والمحكوم ، حتى يحدث المأزق الذى لا خروج منه الا باللجوء الى العنف » ٠٠ هـــذه اذن هى الوسيلة التى تحقق الهدف السابق : دكتاتورية أداتها الدم٠ والنتيجة التى تخرج بها من الكاتب هى ماقاله بالحرف من أن المفكر العربى « يجد نفسه مدفوعا الى الاذعان أو النفى ، الى بيع ضميره أو العزلة ٠ أما النفى فلم يعد ، لأولئك المفكرين الشباب الواعين ــ أى الذين ينشدون الانسجام بين القول والعمل ــ مقتصرا على الابعاد خارج حدود الوطن ٠ ذلك أن هناك نوعا آخر للنفى أمــر وأدهى : انه الاستسلام ، انه وضع اليد على العقل » ٠

ولو أننا أعدنا الآن قراءة مقال جبرا فى العدد السابق عن

رواية جورج أورويل لأدركنـــا جزءا من التخطيط الجهنمى الذى سلكته المجلة فى توجيه سهامها المسمومة الى صدورنا ، فالمقـــال الأول ، فى شكله التعبيرى ، كلام عـــام عن حـرية الفكر والدولة الشمولية • وبالرغم من كل ما يتضمنه من غمزات غير مباشرة فان صاحبه يمكن أن يرد علينا بأنه لا يقصد دولة معينة بالذات ولا نظاما سياسيا بعينه ، وأنه قد تصدى كناقد أدبى لرواية أدبيـة لا أكثر ولا أقل • أما حين نقرأ هذا المقال الجديد فى العدد الثانى ونجـده ينتقل من التعميـم الى التخصيص ، من اورويل والتجربة السوفيتية الى الفكر العربى والتجربة الثورية فى بلادنا •• فاننا ندرك على الفور أن مقال جبرا كان بمثابة التمهيد النظرى لمقـال شرابى فى التطبيق العملى • فالشمولية التى تحدث عنها جبرا هى الحكم المطلق فى التجربة العربية المتجهة نحو الاشتراكية ، والتنظيم السياسى الواحد الذى ورد ذكره فى مقال جبرا ، هـــو التنظيم الاشتراكى العربى الذى يضم تحالف قوى الشعب العاملة ، وهكذا • على أن المجلة لا تتوقف عند حدود هذه التطبيقات الفكرية العامة، بل لا بد لها من أجل أداء رسالتها من أن تتناول كل جزئية بشىء من التفصيل • ومن ثم فنحن نقرأ فى العدد الثانى أيضـا مقالا عنوانه « الاشتراكية والاصلاح الاجتماعى » كتبه مورو بيرجر أستاذ العلوم الاجتماعية فى جامعة برنستون الامريكية • وتقدم المجلة لهذا المقال التفصيلى بتمهيد غاية فى الأهمية اذ تقول « فى معركة النهوض التى نجتازها اليوم تبدو الاشتراكية لبعض المفكرين والقادة العرب، الطريق الفضلى للاصلاح الاجتماعى • فهى ، فى نظرهم ، تقضى على الاستغلال والتفاوت بين الطبقات • وهى كذلك تحاول تزويد القومية العربية بالمضامين ، فالى أى حد تستطيع الاشتراكية العربية أن تحقق ذلك ، وما هى المحاذير والمخاطر التى تتعرض لها ؟ هذا هو الموضوع الذى يثيره هذا المقال » • وقبل أن نمعن فيما تضمره هذه المقدمة

القصيرة من خبث ، لنتوقف بعض الشيء عند نص المقال نفسه ٠

ومن سبق له أن قرأ لمورو بيرجر كتابه « البيروقراطية فى مصر » أو كتابه الآخر « العالم العربى اليوم » يعى على الفور هـذه الحقيقة ، وهى أن الكاتب يتمتع بمنهج شديد الموضوعية حقا فهو يأخذ بكافة الاحتياطات الاكاديمية فى الحصول على مادته الخام وفرزها وتصنيفها ، وأخيرا تقييمها علميا على ضـــوء « نظرة خاصة » الى الأمور ٠٠ وهى النظرة التى من حق كل مفكر أن يختلف بها مع الآخرين ما دام قد حرص منذ البداية على اتقاء الزيف والتضليل بتبنيه لأدوات البحث العلمى تبنيا أصيلا صادقا ٠ أما وجهة نظره الفكرية التى ينطلق منهـا فى معالجة الأمور فلا أحد يســتطيع أن يحاسبه عليها الا بمقدار ما تجنيه من صواب أو خطأ ٠ فماذا يقول مورو بيرجر فى مقاله عن « الاشتراكية والاصلاح الاجتماعى » ؟

يقول ان هناك ثلاثة مصادر للمبادىء الاشتراكية العربية ، أحدها جامعات الغرب فى فرنسا وانجلترا التى تلقى فيها بعض المثقفين العرب بتطرف أو اعتدال ، المبادىء الاشتراكية وبخاصة ما يتصل منها بالاقتصاد الوطنى ومكافحه الاســتعمار ، والمصدر الثانى هو الاتحاد السوفيتى الذى التقت مصالحه فى الهجوم على الغرب مع مصلحة العــرب فى هجومهم على الاســـتعمار الغربى ، والمصدر الثالث ، ما كان شائعا محليا من أفكار اشتراكية كما فى حزب الأهالى العراقى فى أوائل الثلاثينات مع فارق رئيسى هو الحاح اشتراكيى اليوم على القـومية العربية ٠ ومع أن الاشـتراكية لم يتناولها التعريف الدقيق فى بيانات الاشتراكيين العرب — يقول بيرجر — الا أنها تعنى ، كما يبدو له ، « اسـتخدام جهـاز الدولة لتحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق التصنيع والاصلاح الزراعى ، والتشريع الاجتماعى ضد الاستغلال والاستثمار » ثم ينتقل الى القول

بانه قد تم ما يمكن تسميته بتأميم الاشتراكية « بمعنى الاصرار على القوة الوطنية لا على صالح الفرد » ٠٠ وهذه هى العبارة المنتقاة التى توسطت مقال بيرجر كنقطة بداية لوجهة نظره الخاصة ، بعد أن حاول فى موضوعيته أن يعرض لجذور الفكر الاشتراكى ٠ وهى موضوعية قد يخطىء فيها وقد يصيب ، ولكنه فى الحالتين كان صاحب منهج موضوعى فى عرض الأصول والمصادر والمادة الخام ٠ أما حين بدأ يدلى بوجهة نظره الفكرية الخاصة ، فقد بدأت ذاتيته تتغلب على كل شىء ٠ ولا ريب أن من حقه أن تكون له وجهة نظر تختلف معنا ، ولكن أليس من حقنا نحن أيضا أن نحدد هذا الخلاف ونعين مداه ونضعه فى مكانه الصحيح ؟ لقد وضع مورو بيرجر ثلاث نتائج رئيسية لبحثه هى :

١ ـ « ان الاشتراكية تجذب المفكرين العرب لأسباب عديدة غير تزويدهم بوسيلة صالحة للتنديد بالغرب ٠ من هذه الأسباب أن لها فضائل ايجابية قد يكون أهمها أنها توفر حجة مقنعة لبعض المفكرين الذين يعتقدون بأنهم النخبة المدعوة لتحقيق التقدم الاجتماعى ، حتى ولو كانت الجماهير مترددة فى دفع الثمن ٠ فهؤلاء المفكرون ، وقد أخذوا على أنفسهم تحقيق المجد العربى يجدون فى طابع الاشتراكية المغامر ما يستهويهم ويجذب اهتمامهم ٠ فهم ينددون بـ (الديموقراطية المزيفة) التى تتصف بها المجالس النيابية والانتخابات التى تتحكم بها الأنظمة (الاقطاعية) القديمة، ويبررون استعمال الأساليب التعسفية فى سبيل التصنيع وتطوير مجتمع حديث » ٠

٢ ـ « لقد تعلم معظم المفكرين العرب مبادىء الاشتراكية على مقاعد الدراسة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية ٠ والى جانب ذلك فقد تلقنوا نقد الغرب لذاته ، بما فى ذلك ديموقراطيته ورأسماليته٠

وهو أمر عزز عداءهم للسيطرة الغربية على أوطانهم • غير أنهـــم أخفقوا فى ادراك العبرة من وراء هذا المنهج ، أى قدرة الغرب على النظر الى مجتمعهم ومعتقداتهم نظرة موضوعية » •

٣ ـ « ان الاشتراكية كعقيدة شاملة ، قد استهوت عددا كبيرا من المفكرين العرب • الا أنها لم تستهو القادة كثيرا كنظام عقائدى، بل كبرنامج اقتصادى متناسق • فلهؤلاء الذين يحكمون ، تثـــير الاشتراكية تجاوبا شعبيا مستحبا كشعار للتقدم الاجتماعى العام • واذ كانوا مصلحين أكثر منهم عقائديين فانهم على استعداد للأخـــذ بأى مخطط يعينهم على التصنيع والاصلاح الاقتصادى ورفع مستوى المعيشة » •

هذه هى النتائج الرئيسية الثلاث التى نخرج بها مع مـــورو بيرجر من مقاله • فتجربتنا الاجتماعية تقوم على المغامرة وفوق حطام حرية الفرد وضد الجماهير التى ترفض دفع الثمن • كذلك فاننا أخذنا الاشتراكية عن الغرب كرد فعل مقهور من الغرب فلم نفهم موضوعية الغرب وعلمه • واذن فالاشتراكية كما نفهمها ليست الا برنامجا اصلاحيا لا أيديولوجية متكاملة • ليس أمامنا اذن الا أن تحمل الاشتراكية عصاها وترحل عن ديارنا والا فنحن « ضائعون » وهذه هى النغمة السائدة على بقية أعداد مجلة « أدب » التى احتجبت بعد عامين من صدورها ، لأن « حوار » تمكنت من القيام بالمهمة على أكمل وجه •• وان ظل المنهج واحدا : الانطلاق من كلام جميل حول حرية الفكر الى كلام خبيث عن الدكتاتورية والحكم المطلق فى ظل النظم التقدمية العربية الى نتيجة شبه مؤكدة وهى أننا « ضائعون » •• قالتها مجلة « أدب » فى كل أعدادها •• ضـــائعون فى الفـــكر والسياسة والاقتصاد والمجتمع والحياة •• فكيف الخلاص ؟

وقد أجابت مجلة « حوار » على هذا السؤال فى ٢٧ عـــددا

أصدرتها منذ نوفمبر ١٩٦٢ · ولقد بدأت « حوار» بنفس البداية البارعة التى بدأت بها مجلة « أدب » وهى أنها مجله شعارها حرية الرأى ليست مسئولة عما ينشر على صفحاتها من مواد تعبر أولا وأخيرا عن كاتبيها لا عن « المنظمة العالميـــة لحرية الثقـــافة » التى تصدرها · واذا كانت مجلة « أدب » قد كشفت نفسها الى حد ما بأنها نشرت أبحاثا مباشرة فى السياسة والاقتصـــاد وهى المجلة المتخصصة فى الأدب وحده كما جاء فى مقدمة أولى أعدادها ، فان « حوار » احتاطت للأمر احتياطا ذكيا للغاية فدعت نفسها « مجلة الثقافة العربية المنفتحة » · والحق أنها قد بلغت من الذكاء فى اختيار موادها وتبويبها واخراجها حدا مذهلا خدع فريقا من الكتاب والأدباء والفنانين من مختلف البلدان العربية · ولقـــد كان كاتب هذه السطور واحدا ممن خدعتهم « حوار » وصاحبهـــا مدة عامين كاملين من أعوامها الخمســة التى عاشتها · كانت الثقة الشخصية فى توفيق صايغ والوزن الثقيل للمجلة والجهـــل بحقيقة المنظمة الممولة واستعدادها لنشر ما نكتبه حرفيا دون أى تدخل بأية صورة من الصـــور ، كانت هذه العوامل مجتمعة بالاضـــافة الى مستوى المجلة ومعاصرتها لأحدث ما ينتجـــه الفكر والفن فى العالم وفى بلادنا ·· هى الضغوط التى حجبت عن ناظرى شخصيا حقيقة « حوار » وأهداف المنظمة التى تصدرها · وبالرغم من التناقضات التى استغلت آنذاك ، بينى وبين بعض المنابر الأخرى وبعـــض الزملاء من المثقفين المعادين لـ «حوار» منذ البداية ، وبالرغم من وجود مائتى اسم عربى على أغلفة « حوار » من بينها ثمانين اسما مصريا من مختلف الاتجاهات (سهير القلماوى ومجدى وهبة ومحمد مندور ولويس عوض وميخائيل رومان ومحمد خلف الله وآدم حنين وجاذبية سرى وتحية حليم وجورج البهجورى ·· الخ) · أقول انه بالرغم

من أهمية هذين العاملين ، فان بقية العوامل الســـابقة هى التى ظللت عينى وعيون الآخرين فيما أعتقد بسحابة ثقيلة من الخديعة أضلتنا جميعا ٠٠ ومن ثم اكتسبت «حوار» على أغلفتها أسماء وطنية وتقدمية ما كانت تحلم بها لو أنها كانت على درجة من الصراحة كتلك التى تكشف عن طبيعة مجلة رجعية مثل « بريف » الفرنسية وقد شاركت هذه الأسماء الوطنية والتقدمية فى تضليل الكثـرة القارئة ، وهذا هو الجزء الأول من الكسب الذى حققته « حوار » الى أن انكشف أمرها فباعدت القطيعة بين كتابها وقرائهم الذين فقدوا فيهم الثقة ، وهذا هو الجزء الثانى من الكسب الخطير ٠ فماذا كانت خطة « حوار » ؟

لقد بدأت بنفس المقدمة التى بدأت بها « أدب » وهى الالحاح على أزمة المثقفين فى البلدان العربية ، وان جوهر هذه الأزمة هى غياب الحرية بمضمونها اللبرالى الغربى ، وأن الازمة باقية ما بقيت الأنظمة التى تدعو نفسها تقدمية وثورية ٠٠ ومن ثم وجب البحث عن منفذ ، عن طريق للخلاص ، حاولت «حوار» أن تصوغه فى ثلاث خطوات : الاولى هى البناء الاقتصادى ، والثانية هى النظام السياسى والثالثة هى التطور الثقافى ٠ لنبدأ جولتنا اذن مع « حوار » فيما تقدمه من حلول « لأزمة » بنائنا الاقتصادى ٠

فى العدد الأول من « حوار » كتب مروان اسكندر مقالا بعنوان « بترول الشرق الأوسط والسوق المشتركة » عرض فيه لأهمية « تبادل المنفعة الاقتصادية » بين الدول العربية ودول الســـوق الأوروبية المشتركة من جراء « نظام عادل ومستقر » لتجارة وصناعة البترول ٠ واختتم مقاله حرفيا بما يلى « وقد أدت التطورات الأخيرة فى حقل النفط الى وضع يمكن لدول الشرق الأوســـط ودول كتلة أوروبا الاستفادة منه ان توصلت الى اتفاق حول بعض النقـــاط التفصيلية ، فالاتفاق الذى يؤدى الى استعمال النفط بصورة أعم

فى الصناعة الأوروبية يدعم هذه الصناعات ، كما يوفر **للدول التى تنتج النفط موارد هى فى أشد الحاجة اليها كى تمضى فى عمليات الانماء الاقتصادى** • وبقدر ما تبدو هذه الصورة بسيطة وواضحة، فان تطورها ليصبح حقيقة قائمة يتطلب ادخال عنصر لم يلجأ اليه سابقا ، ألا وهو جهد حكومات كل الأقطار المنتجة والمستهلكة • فالعلاقات النفطية فى حاجة الى أن تصبح مثلثة الزوايا تجمع بين الشركات المستثمرة وكتلتى الدول المعنية » • وهكذا ينطلق الكاتب من زاوية « المصلحة الاقتصادية » لطرفى التعاقد متجاهلا الى أبعد مدى القيمة الحقيقية الثابتة للبترول العربى « كسلاح اقتصادى قومى » فى معركة الحرية والتقدم التى يجتازها الوطن العربى • ولعل « التفكير الاقتصادى البحت » فى هذا الموضوع هو الذى قاده تلقائيا الى تقديم التنازلات بالنيابة عن الجانبين حتى يتم اللقاء « المشروع » بين البترول العربى والسوق الأوروبية المشتركة وكأن البترول العربى حق بديهى ومسلم به لمصلحة المصانع والشركات الأوروبية التى عليها أن تكون « عادلة فى شروطها » حتى يتمكن العربى من الحصول على قوت يومه •• ونسى مروان اسكندر أن البترول قضية سياسية كما أنه مشكلة اقتصادية ، وأن الانحصار فى الجزئيات والتفاصيل هو محاولة بارعة لتغطية ما هو أهم وأكثر شمولا وهو العلاقة التى تربط بعض البلدان العربية اقتصاديا بالغرب •

وفى العدد الثانى من « حوار » كتب الدكتور يوسف عبد الله صايغ مدير المعهد الاقتصادى بجامعة بيروت الأمريكية تحت عنوان « آلام النمو العربى » ما نصه : « ينبغى أن نضيف أن النمو الاقتصادى العربى الذى يعتمد على البرامج المخططة من شأنه أن يزيد فى تحجر الوضع السياسى الحاضر بما فيه من تفتت وتباعد • فالتخطيط هو دنو مؤسس من مهمة تعبئة واستخدام الموارد ، على

الأخص حين تصل الخطة شتى القطاعات والفئات وتؤثر فى المواقف الاقتصادية والاجتماعية وتمتد لعدة سنوات مقبلة . وعلى هذا فان الخطة فى الواقع تغدو قيدا سياسيا الى مقدار ليس بالزهيد ، بما تخلق حول ذاتها من مصالح راسخة ومن تركيب معقد صعب التحويل ومن صيغ سياسية وتنفيذية متشابكة لا تسهل ازالتها » .

وقد تبدو هذه الكلمات « الموضوعية » لأول وهلة وكأنها تحليل علمى محايد لمعنى الخطة والتخطيط الذى تأخذ به بعض البلدان العربية ، ولكنه فى واقع الأمر يؤيد منهجا محددا فى التخطيط الاقتصادى هو المنهج الذى تأخذ به بعض البلدان الرأسمالية نفسها .. بما لا يتفق وطريق التطور الذى تختطه بلاد كبلادنا .

على أن يوسف صايغ يملك « منهجا متكاملا » فى فهم هذه القضية الشائكة وتحليلها .. لذلك فهو يتابع الكتابة فى هذا الموضوع تحت عنوان « العقبات الثقافية فى سبيل التنمية الاقتصادية عندنا » بالعدد السابع من « حوار » فيقول انه من بين العوائق الأساسية التى تحول دون تطورنا بالقدر الكافى أنه ليس لدينا « خط دفاع ثقافى » (فى وجه التحول فى نظام السلطة الناشىء عن توزيع الاقطاعات الكبيرة) ذلك أنه (قد نجح « ورثة » سلطة المالك الكبير ووظائفه فى ملء الفراغ بسرعة) . وفى العدد الثالث عشر كتب خالد الشاعر ــ بالمعهد الاقتصادى للجامعة الامريكية فى بيروت أيضا ــ تحت عنوان « مشاكلنا الاقتصادية وحوار التخطيط » فيقول بصراحة يحسد عليها ما أراد أن يقوله صايغ بالتواء وحذر « ان الحجة الماركسية ضد الملكية الفردية ومبدأ التخطيط هى أن الجمع بين الملكية الفردية ومبدأ التخطيط يتطلب الفصل بين المصالح الاقتصادية والدولة . وهذا بنظر الماركسية ضرب من الخيال .

ولا داعى هنا لاعادة الحجج النظرية التى من شأنها الرد على المنطق الماركسى ، وانما يجب لفت النظر الى طبيعة الحكم فى البلدان

العربية • اذ أن الحكم فى البلدان العـــربية قائم على عدة أشياء ، والمصالح الاقتصادية جزء بسيط من هذه الأشياء • ولذلك فمن الممكن الفصل بين الدولة والمصالح الاقتصـــادية فى البلدان العربية على الأقل • هذا من ناحية ، ومن ناحيـــة أخرى **فان الارتباط بمبدأ التخطيط لا يعنى القضاء على مصلحة أصـحاب رءوس الأموال ،** وانما تحديد حريتهم ــ تماما كما يحدد قانون السير حرية سائقى السيارات ــ **أى أن التخطيط يتطلب حكما قويا فقط ،** وهذا الحكم متوفر فى البلدان العربية • والفائدة من الحفاظ على النظام الفردى هى عدم اعطاء السلطة الاقتصادية لفئة قليلة قد تعبث بمقدرات الأمة • ومهما يكن من أمر فان المهم هو أن التخطيط يتطلب حدا أدنى من مراقبة الدولة ، وهذا الحد الأدنى يتطلب حكومة قوية • أما اذا أرادت الدولة زيادة سلطتها الاقتصادية عن طريق التأميم والملكية الجماعية ، فهذا أمــر ليست له عـــلاقة بالتخطيط وانما بمواقف سياسية أو فلسفية » •

هذه اذن هى القضية•• يبدأ الحديث بالتناقض بين الماركسية والتخطيط الرأسمالى ، وينتهى بأن الوطن العـــربى ليس بحاجة الى التخطيط الاشتراكى وانما بحاجة الى « حكومة قـــوية فقط » لا تعتدى على حقوق الرأسماليين ، والا فالتأميم وملكية الشــــعب وما أشبه ذلك لا علاقة لها « بالتخطيط » وانما (بمواقف سياسية وفلسفية) ولو أنه تمادى فى صراحته اللفظية لوصف هذه المواقف بما جاء فى مقدمة الحديث من أنها « ماركسية » •• وهذا هو السم الذى يريد كل من الكاتب والمجلة أن يبثـــه فى اطار من العــــلم والموضوعية ، السم الذى يضعه الكاتب بين أنياب أعدائنا وهـــم ينشبونها فى لحمنا الحى ، فهم يستهدفون تجربتنا الاشـــتراكية بتخطيطها الذى لا ينعزل عن تجارب الفكر والتطبيق الاشتراكى فى العالم ، ولكنه فى نفس الوقت يصـــدر عن واقعنا الخـــاص بكل ما يشتمل عليه من متناقضات •

ولقد تمكنت « حوار » من أن تربط بين هذا « التشـــخيص الاقتصادى » المنحرف لواقعنا والتشخيص السياسى ، فقدمت الى القارىء العربى مجموعة خطيرة من الأبحاث السياسية المباشرة . ففى عددها الثالث قدمت مقالا عنوانه « الديموقراطية والدول الحديثة الاستقلال » لجورج أبى صعب حيث يبدأ المقال بكلمه لونســتون تشرشل قال فيها « الديموقراطية نظـــام ردىء ، الا أننا لا نعرف نظاما أصلح منه للحكم » وهى عبارة تلخص مقال جورج أبى صعب تلخيصا دقيقا ، اذ هو يعرض بعد ذلك لمفهوم الديموقراطيه حسب التعريفات البرجوازية البراقة « حكم الشعب بواسطة الشعب لمصلحة الشعب » ثم يعرض لأزمة الديموقراطية فى قارتى آسيا وآفريقيا ، وينتهى الى أن الديموقراطية بمفهومهـــا الليبرالى الغربى هى الأمل الوحيد أمام الشعوب النامية . وفى العدد الثالث تطل من جديد نفس النغمة ، اذ يقول محجوب بن ميلاد فى مقال بعنوان « الانســان أمام الحرية ومسئولياتها » انه « لمن رام تشييد بناء النهضة الحقيقيـــة فى الأقطار الاسلامية جميعها ، أن يعمد الى شرورنا كلها فيعالجها معالجة جذرية بتربية عواطف الحرية فى النفوس صحيح التربية » . وفى نفس العدد يقول املان داتا تحت عنوان « الديموقراطية وحرية الرأى » .. « ولقد قدمت نظم الحكم المطلق الحديثة نفسها فى كثير من الاحيان بالوعد بانهاء الاستغلال ولكنها لم تفشل أبدا فى ايجاد تدبيرات جديدة للاستغلال . فدولة الحكم المطلق ـ والمقصود هنــا الدولة الاشتراكية ـ تنكر أية قيمة لكل من يظهر أنه يحمل آراء تختلف عن الآراء التى اعتبرتها حكمة الدولة لائقة بالمواطنين الشرفاء. وبنفى قيمة هؤلاء الأشخاص يوضع بالضرورة أساس نوع جديد من الاستغلال » . هكذا الخلاص اذن لوطننا ومجتمعنا ، الخلاص الذى قدمته « حوار » اقتصاديا بالأخذ بأسباب المجتمع الرأسمالى ، تترجمه سياسيا بأن يأخذ بأسباب الديمقراطية الغربية . وهى لا تلح على هذا الهدف الحاحا مباشرا ، وانما تســتخدم أكثر الطرق بعدا عن

المباشرة ، فيكتب حسـن جوادى فى العدد الخامس تحت عنـوان « صور غريبة للعرب » ماوصفته المجلة فى مقدمتهـا من أنه مقال يؤرخ لنظرة المؤلفين الأوروبيين للغرب والاسـلام وتطورها خـلال القرون «من تهجم وعدوانية الى محاولة للتفهم والتفاهم» · فحوار لا تنسى أن المنطقة العربية قد عانت الويلات من الاستعمار «الغربى» · لذلك فهى لا تنسى أنها تصدم الوجدان العربى صـدمة شديدة اذا اكتفت بتقديم « النموذج الغـربى للحيـاة » دون أن تنبئه بهذا « التـحول » الجديد عنـد الغربيين أنفسـهم ·· فقد أصـبحوا « يفهموننـا » ويرغبـون فى « التفـاهم » معنـا · لننتقل اذن الى « امكانيات التفاهم » و « موضوعات التفاهم » و « مشكلات التفاهم » الواقعية ·· فاذا وضعنا أيدينا على ما يعنيه هذا « التفاهم » أدركنا الأهداف الخبيثة الملتوية التى روجت لهـا « حوار » فى سـنواتها الخمس ·

ولعل مشكلة فلسطين من أولى المشكلات التى تتمتع بحساسية خاصة عنـد المواطن العربى ، وموقف الغربيين على السواء · لذلك يكتب وليد الخالدى أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية فى بيروت مقالا عنوانه « حول مواقف الغرب من القضية الفلسطينية » فيقول فى مقـدمة قصيرة « عنـدما يتحدث عربى الى غير عربى عن القضية الفلسطينية ، فغالبا مايعترضهما حائط مسدود فيما يتعلق بالحاضر · فقد يتفق الأجنبى مع العربى أو قد يبدى عطفه وتفهمه فيما يختص بالماضى ، الا أن الحديث عن القضية فى أبعادها الحاضرة والمستقبلة يؤول بهما الى الافتراق » فهناك ـ فى رأى أستاذ السياسة بالجامعة الأمريكية ـ من لا يتوانون عن الاقرار بأن التحجج بالتاريخ الذى يقوم عليـه الصرح الايديولوجى الصهيونى بأسره « لا يخوله حق اقامة دولة سياسية الآن ، وأن وعد بلفور والانتداب البريطانى كانا وثيقتين غير أخلاقيتين أو عادلتين ، وخيانة للوعود التى سبق

اعطاؤها للعرب » ٠ بل ان هناك من الغربيين فى أوربا وأمريكا من يعتقد « ان حرب ١٩٤٧ ــ ١٩٤٩ التى اجتثت أهالى فلسطين العرب من جذورهم وشتتهم فى جهات المنطقة الاربع ، ودمرت كيانهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى ، وقلبت أكثريتهم من بشر يتمتعون باحترام الذات الى متسولين يعيشون على الحسنات التى تتصدق بها الدول ، كانت الذروة المرعبة والمتوقعة منذ وقت طويل لسياسة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين » يقول وليد الخالدى ان هناك من يقرون بهذا كله ، وبكثير سواه « بصدى واخلاص وندامة » ويتحول الكاتب العربى بهذا القول الى « وسيط من نوع غريب » بين العرب والغرب وكأن المشكلة كما وضعها هو خطأ فى عبارته التى تقول بالحرف « ٠٠ واسرائيل ، من وجهة نظر العرب ، حقيقة غير مرغوب فيها » ٠٠ لقد كتب الخالدى هذا الكلام فى حوار (مارس وأبريل ١٩٦٤) وبعد ثلاث سنوات ، أعتقد أن « الحقيقة » التى يدريها العرب بدمائهم أن أمريكا ــ وليست اسرائيل وحدها ــ هى العدو الحقيقى والرئيسى للأمة العربية ، أما اسرائيل فليست الا النجمة الحادية والخمسين فى علم الولايات المتحدة الأمريكية ، هى ــ بمعنى أدق ــ ثكنة عسكرية أمريكية خالصة ٠ فهل يمكن أن يقال بعد اليوم ان أمريكا وبريطانيا وبقية الدول التابعة لهما تحس « ندما عميقا » على نشأة اسرائيل ؟

والقضية الثانية التى ترتبط بمشكلة فلسطين من حيث درجة الحساسية ، هى قضية القومية العربية ٠ وفى هذا الموضوع يكتب نقولا زيادة أستاذ التاريخ العربى بالجامعة الأمريكية تحت عنوان « الحركة القومية الحاضرة وجذورها التاريخية » بالعدد الرابع عشر ٠ ويكفى أن أنقل ما جاء فى خاتمة هذا البحث ليدل على منهج كاتبه اذ يقول : « ان الدعوة الى القومية السورية كانت على العموم أوضح فى تبيان منهاجها من الدعوة الى القومية العربية » ٠ على أن أخطر

المقالات والبحوث السياسية التى نشرتها «حوار» ذلك المقال الذى كتبه سيمون جارجى عضو مجلس ادارة المنظمة العالمية لحرية الثقافة فى باريس والمشرف على النشاط « العربى » بالرغم من انه يهودى وكان الاولى به أن يختص بشئون « اسرائيل » ٠ كتب مقالا فى العدد الثانى عشر عنوانه « حول فشل الديموقراطية الليبرالية فى الشرق الأوسط » هو نموذج حى للفكر الاستعمارى الجديد الذى « يمنح » الاستقلال الشكلى للبلدان المتحررة حديثا و « يمنع » الحرية الحقيقية عنها وذلك بربطها فى فلك الاستعمار الجديد ومؤسساته السياسية والثقافية ٠

ان « حوار » لم تأل جهدا فى اثارة معظم القضايا التى تشغل بال المثقف العربى المعاصر من وجهة النظر الفكرية للاستعمار الجديد، سواء فى الاقتصاد أو فى السياسة ٠ وقد رافقت المجلة منذ ١٩٦٢ عام ظهورها الى منتصف عام ١٩٦٧ عام اختفائها كافة خطواتنا الاقتصادية والسياسية بمهارة شديدة يكتشف المرء خبثها بعد عناء ومراجعة ٠ غير أن الاقتصاد والسياسة ليسا الا بمثابة الأرض التطبيقية لأيديولوجية المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، أيديولوجية الامبريالية والاستعمار الجديد ، بصراحة أكثر أيديولوجية الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية٠وكانت «حوار» فى تقديم عددها الأول قد قالت انها « ستعنى عناية خاصة بقضايا الحريات ، وعلى رأسها حرية الثقافة ، حرية التفكير والتعبير والقول والقراءة ، فى العالم كله ٠ ستدعو اليها ، وتنبه اليها ، وتدافع عنها ، **وتقيم المذاهب والنظم على أساس تبنى هذه للحريات أو تنكرها لها**» فماهى الحريات التى دافعت عنها « حوار » ؟ كتب أجنازيو سيلونى فى العدد الأول مقالا عن « الكاتب المعاصر والالتزام » جاء فيه « ان الخطأ الأول الذى يمكن أن يقع فيه المرء فيما يخص الالتزام، هو اعتباره مبدأ وانضواء اجباريا ينتج عنه اضطهاد الذين لا يلتزمون واحتقارهم ٠ وقد اتخذ

هذا الخطأ الجسيم أشكالا مضحكة ومرعبة معـا ، فى بعض البلدان التى نظمت الشعراء والكتاب فى مفارز اصطدام ، وأرسلت بعضهم تارة الى المزارع وتارة الى المصـانع ، لاعطاء كلمة السر الأخـيرة فى الحزب أو الدولةشكلا أدبيا وشعريا. ان هذا مثل متطرف بلا ريب، ولكن ما أردت قصدههو أن هذا الخطأ يولد تلك الأحكام المحقرة التى تطلق على كتـاب ما زالوا يكتبون عن الحب والأزاهير وأحلام الليل بدل أن يتطرقوا الى المواضيع السياسية والاجتماعية ، .وسيلونى ليس كاتبا صغيرا . نعم هو أحد جنود القافلة التى ارتدت عن الفكر الاشتراكى، ولكنه ليس كاتبا تافها للدرجة التىمعها يزيف ضميره ويضلل قراءه . ومع هذا فأين الصدق فى هذا الاتهام الجائر الذى يوجهه فى العدد الأول من « حوار » الى مبدأ الالتزام فى الأدب ؟ أين قراء سيلونى فى النقد الاشتراكى تهجما على من يتهللون للورود ويرقصون للأزهار ونور الشمس ؟ وأين ـ يا حوار ـ المقال الآخر الذى يرد على سيلونى حتى تكون هناك « حرية فكر » حقيقية ؟ أم أن هـــذا المقال هو الرأى الرسمى للمجلة التى أعلنت وتعلن أنها لا ترتبط بالآراء التى تنشرها ، لا هى ولا المنظمة التى تصدرها ؟ ان سيلونى ليس « مجرد كاتب » بل هو يرأس تحرير المجلة الايطالية التى تصـــدر عن نفس المنظمة الممــولة لحوار . واذن فليس أمامنـــا ـ والمقال فى صدر العدد الأول ـ الا أن نقتنع بأن ما جاء فيه من أفكار انما يعبر عن الخط الأيديولوجى للمجلة والمنظمة معا . وهو الخط الذى يمكن متابعته فيما نشرته «حوار» من مقالات عديدة حول الثقافة والمثقفين مثل المقال الخطير الذى كتبه « ب.ج. فاتيكيوتيس » بالعـــدد الرابع عن المثقف العربى والمجتمع الحديث » أوجز نقـاطه الرئيسية فيما يلى :

* « لا تزال الثقافة ـ فى مصر ـ تابعة الى الآن لضرورات الدولة

من تدريب صناعي وفني واقتصادي ، وبرامجها تجيء رأسا من السلطات المختصة أى وزارة التربية والتعليـــم ٠ لذلك كان نطاق الاختيار الحر فى المواد ، وطريقة التدريس لدى الاستاذ والمدرس خصوصا فى الجامعات ، ضـــيقا ومقيدا ٠ ولا تزال تسهيلات البحث العلمى بدائية ومحدودة خصوصا فى العلوم الاجتماعية والفلسفة ، فلم نر بعد اعتناء جديا بالقيم الضرورية لتربية وخلق جيل جديد يفكر بأسلوب يواجـــه ويلبى مطالب المجتمع الصناعى الحديث ، حتى أن المثقفين أنفســـهم حائرون فى علاقتهم بثورة قلبت حكما قائما على مبادىء رجعية ، قادتها فئة من المجتمع تؤدى عملا اختصاصيا ، هى الجيش ٠ فهـــذه الحيرة هى الصعوبة الرئيسية التى تمنع المثقف من أن يرسم بجرأة خطوطا أساسية جديدة لفلسفة حديثة معاصرة للتمدن الانسانى للمواطن أو لعضو المجتمع العربى الحديث » ٠

* « ٠٠ وبينما سبق ثورات فرنســا فى القرن التاسع عشر ، وثورة روسيا فى القرن العشرين ، وكذلك ثورات أخرى فى أوروبا وآسيا ، تفكير منظم استبدل مجموعة كاملة من العقائد والمبادىء والقيم القديمة بمجموعــة جــديدة كاملة للمجتمع المرجو ٠٠ لم يحدث هذا فى الجمهورية العربية المتحدة بعد » ٠

* « ٠٠ ومما يلاحظ أن نسبة النجاح فى التدريب الصـــناعى التكنولوجى فى الجمهورية العربية المتحدة أعلى من نسبة النجاح فى تربية رواد الفكر العلمى الاجتماعى والانسانى ، مع العلم بأن نسبة الطلاب فى الآداب والحقوق أعلى بكثير من نسبتهم فى العلوم الطبيعية والهندسية ٠٠ الخ ٠ »

تلك هى « الصورة المشوهة » لحقيقة ما يجرى فى بلادنا من تغيرات ، يضعها هذا الكاتب اليونانى الأصل الأمريكى الجنســية

فى اطار « الحقيقة الثابتة » وفى براعة لا شك فيها يضع قطرة السم بحذر شديد حين يقول انه لم يكن هناك « تيسيرات » فى مجال الفكر تتيح له الازدهار • مرة أخرى : قضية الحرية •• ومن نفس الزاوية التى طرقتها «حوار» فى معظم مقالاتهـا •• الزاوية التى ينطلق منها التقييم الشامل للنظام • وهكذا كتب الدكتور جميل صليبا فى العدد ٢١موضوعا حول «الدولة والتعليم فى البلدان العربية» كان نصيبنا منه هذه الأسطر « ان علاقة الدولة بالتعليم فى البلاد العربية قائمة على مبدأين متعارضين فى الظاهر متفقين فى الباطن ، وهما مبـدأ سيطرة الدولة على التعليم ومبدأ حرية التعليم ، فحيث تزداد سيطرة الدولة تقل حرية التعليم » ثم يستدرك دون أن يتوقف عن الغمز « •• ولكن الدول العربية التى أخذت بمبدأ سيطرة الدولة لم تبطل حرية التعليم كما فعل الاتحاد الســـوفيتى ، بل جمعت بين مبدأ السيطرة ومبدأ الحرية • واذا كان المرسوم ١٦٠ المطبق فى سوريا ومصر قد تشدد فى اشراف الدولة على المدارس الخاصة ومراقبتها ، فانه لم ينكر حرية الأفراد والجماعات فى انشاء هذه المدارس وفقا لأحكام القانون » •

تلك ــ مرة أخرى ــ هى الصورة التى صاغتها حوار فى براعة فائقة ، للحياة العربية سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية • وهى صورة المجتمع المنهار ، صورة الانقاض التى لن يجمع شملها الا فارس مغوار يحمل على صدره شارة النصر الانجليزية وعلى رأسه تمثال الحرية الأمريكى •• فهذا هو طريق الخلاص الذى اختارته لنا المنظمة العالمية لحرية الثقافة بوعى وذكاء شــديدين أخفى وجههـا القبيح وراء قناع من الوساطة الغريبة التى قام بها بعض المفكرين العرب • هذا لا يغفر لى ولا لغيرى ممن أسهموا بأية صورة من الصور فى تحرير « حوار » يوما من الأيام ، الخطأ الفادح والمسئولية الكاملة•

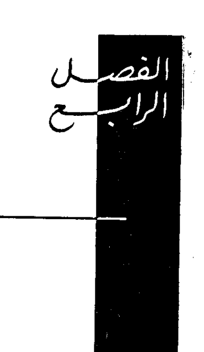
على أننى حين أعيد النظر الآن فى غالبية الأسماء المطبوعـــة على أغلفة حوار ، أجد أنها ذات طبيعة واحدة أو متقاربة ، فمعظمهم يعمل فى الجامعة الأمريكية فى بيروت أو الجامعـــات الأمريكية فى الخارج ، ومعظمهم تخرج من جامعات الولايات المتحدة ، ومعظمهـم يعمل خارج الجامعة فى فرانكلين أو مكاتب الاستعلامات الأمريكية ٠٠ وهم اذن «شبكة» نسجت بمهارة فذة ، تمكنت خلال الفترة الواقعة بين عامى ٦٢ و ١٩٦٧ من أن تصطاد الكثير من أهدافنا ومواقعنا ٠ ولم يكن مؤتمر روما عام ١٩٦١ الا اجتماعا موسعا أو لجنة تحضيرية لانشاء « أدب » و « حوار » وتغذية نشرتهم التى توقفت هى الأخرى «أضواء» ٠ واذا كانت هذه المنابر كلها قد اختفت ، فان هذا لا يعنى أن دور المنظمة العالمية لحرية الثقافة أو وكالة المخـابرات المركزية قد انتهى ٠٠ سوف يظهرون مرة ثانية وثالثة فى أشكال متعددة وألوان مختلفة ، سوف يحاكون الحرباء فى « تكيف » لونها مع المكان والظروف التى توجـد فيها ٠٠ فالحـرب الفكرية الاسـتعمارية لن تتوقف ، بل ستزداد اشتعالا وتخفيا والتواء وخبثا ٠٠ واذا كنا قد خسرنا فى جولة مضت ، فلن نخسر الجولة القادمة حتما ٠

ان المنظمة العالمية لحرية الثقافة ليست الا نموذجا مفصـــلا فى خطة العدو فى حـربه الفكرية ضـدنا ٠ هنـاك منظمات أخرى كثيرة بغير حصر ولا عدد ، بأسماء وبغير أسماء ، معروفة ومجهولة، قديمة وجديدة ، فهل نقع فريسة الجهل والخديعة مرة أخرى ؟ أم أن من يسقط المرة القادمة لن يكون بحال مغمض العينين ؟

لقد كانت خطة « حوار » و « أدب » من قبلها و « أضواء » من بعدهما ، هى استغلال حركة التـــوتر الاجتماعى والصراع الفكرى

الدائر فى المنطقة العربية خلال السنوات الأخيرة وتوجيهه نحو « استقطاب » يخدم أيديولوجية الاستعمار الجديد ٠ ومهمتنا الآن أن نبادر بخطة مضادة للسنوات الخمس القادمة ٠ خطة علمية تخدم احتياجات الوطن العربى ككل كما تلبى احتياجات كل قطر على حدة ، خطة تضع فى اعتبارها طبيعة المرحلة التاريخية التى يعيشها مجتمعنا فى تطوره العظيم نحو الاشتراكية ٠





الفصل الرابع

آثار العدوان على بنائنا الثقافي

العدوان قائم ·· والمعركة مستمرة

اذا كان هذا الشعار هو التعبير الثورى عن الوضع الراهن فى حياتنا السياسية والعسكرية ، فانه أيضا التعبير الأمثل عن الموقف الحالى فى حياتنا الثقافية والفكرية ·· ولعل « النكسة » فى حياتنا الثقافية أسبق فى معيار الزمن من نكستنا العسكرية ، فلقد كان العدوان الثقافى على فكرنا القومى سابقا على العدوان المسلح · واننى أشعر وأنا أكتب هذا الفصل بعد أن سمعت بقرار فرض الحراسة على الجامعة الامريكية فى القاهرة بأن الكلمات السابقة على هذا الفصل والتى كتبتها قبل العدوان الثلاثى الأخير لا تزال تحمل رائحة المأساة والنذير بما يوشك أن يقع فى حياتنا الفكرية اذا مضت بنا الأمور كما هى عليه الآن ··

فلا يكفى مطلقا أن نفرض الحراسة على فرانكلين أو الجامعة الأمريكية ، أو أن نحولهما الى مؤسسات وطنية ·· هذا واجب

قومى عاجل لاشك فيه ، ولكن الوقوف عند أعتاب هذا الواجب والتغنى به يصل بنا فى المدى القريب الى « التنازل » عن الكثير من التزاماتنا أمام الشعب الذى أولانا ثقته ، بل اننا نجازف فى هذه الحال « بالمساومة » على شرفنا القومى نفسه · فنحن اذا تصورنا للحظة واحدة أن المعركة قد انتهت بيننا وبين الفكر الاستعمارى ، بتجميد فرانكلين أو بتعريب الجامعة الأمريكية ·· فاننا يجب أن نسلم مع هذا التصور بأننا نحن الذين انتهينا وليست المعركة ، نحن الذين تعبنا من مشقة الطريق ووعورته ·· الطريق الطويل الى خلق ثقافة وطنية تقدمية تحمى مكاسب الاستقلال الوطنى للانسان العربى وتسهم معه خطوة خطوة فى تصفية الاستغلال والظلم ، وبناء المجتمع العادل المطمئن ··

لنبدأ اذن هذه المهمة العاجلة التى تقول بتصفية آثار العدوان· والعدوان الذى أقصـــده هنا هو العدوان الثقافى الذى مارســته الامبريالية والاستعمار الجديد خلال السنوات الماضية · وهو أيضا العدوان الثلاثى الأخـير الذى سينعكس بغـير شـك فيما سينتجه مثقفونا من فكر خلال السنوات القادمة · واننى لأضع فى اعتبارى وأنا أسوق هذا الحديث عن المنطقة العربية كلها ، ان الثقافة فكرا وانتاجا واستهلاكا تختلف من جزء الى آخر من أجزاء هذه المنطقة وان اتحدت جميعها فى هدف واحد هو مناضلة الاستعمار ·· فأقطار مثل مصر والجزائر وسوريا والعراق تختلف مؤسساتها الثقافية عن أقطار أخرى مثل لبنان والمغرب وتونس ، وهذه كلها تغـاير تماما الأوضاع السائدة فى السعودية والكويت والأردن حيث تكاد هذه الأقطار أن تخلو من مؤسسات ثقافية يعتد بها · هناك اذن تصفية شاملة لآثار العدوان الثقافى الاســتعمارى على الصعيد القومى ، وتصفية أخرى محلية تتناسب مع الظروف الذاتية لكل قطر عربى على حدة ··

أما التصفية الشاملة على صعيد الوطن العربى فأوجزها فيما يلى من نقاط :

١ – اذا لم يكن ثمة مكاسب فى الجولة الأخيرة مع اسرائيل سوى انه قد أصبح فى مرتبة اليقين أن « أمريكا » هى العدو الحقيقى والرئيسى للعرب ، فانه ينبغى الحرص على هذا الكسب حرصـــا « ثقافيا »عميقا ٠٠ أى انه يتعين على مؤسسات الثقافة العربية فى مختلف أشـــكالها ومســـتوياتها ان تغتنم هذه الفرصة النادرة فى تاريخنـــا الفكرى والســـياسى حيث تكاد تتفق معظم السلطات السياسية فى العالم العربى على أن الولايات المتحدة الأمريكية هى قلعة الامبريالية والاستعمار الجديد ، وانها قائدة الثورة المضادة فى العالم ٠٠ وبالتالى لم تعد أمام مؤسسات الثقـــافة العـــربية سواء مايخضع لملكيات فردية أو مايخضع منها لاشراف الدولة وتوجيهها أية حواجز أو عقبات « قهرية » تحول دون التعبير الثورى الناضج عن هذه الحقيقة المؤكدة ، وهى أن « الاستعمار الأمريكى » هو الهدف الاستراتيجى لنضال الشعوب المضطهدة ، وان اسرائيل هى احدى الثكنات العسكرية الأمريكية المترامية على طول الأرض وعرضها ٠ أى أن المهمة العاجلة أمام الأجهزة الثقافية فى بلادنا العربية والطاقات البشرية المثقفة هى تقديم «أمريكا – الاستعمار» الى الشعوب العربية تقديما واضحا ومفصلا ٠ هذا يستوجب تغيير الصورة الرومانسية الحالمة التى استقرت فى الذهن العربى منذ عشرات السنين عن « الجنة الأمريكية » بأن تستبدل بالصورة الحقيقية الموضـــوعية « لوجهها القبيح » ٠٠ وربما كانت سلســـلة التحقيقات التى قدمتهـــا جريدة الجمهورية باشراف الدكتور محمد أنيس، وسلسلة المقالات التى قدمتها جريدة الأهرام لمحمد حسنين هيكل ، وكتاب «الحكومة الخفية» الذى نشرته دار المعارف ، والعدد الخاص الذى أصدرته مجلة الكاتب فى يونيو سنة ١٩٦٧ ٠٠ ربما كانت هذه النماذج هى المبادرات الأولى فى

هذا الاتجاه فلم يعد كافيا أن نكيل السباب لأمريكا ، بل لابد من أن نتجاوز هذه الخطوة الى ماهو أكثر جدية وعمقا . لابد من تناول أمريكا من الداخل تناولا تفصيليا دقيقا ، ثم تناول تطورها التاريخى حتى نتعرف على الجذور الموضوعية لطبيعتها الحالية ، ثم تناول علاقاتها بالعالم الخارجى ، بحليفاتها فى الغرب وغرمائها فى الشرق ، وأعدائها الجدد فى بلدان العالم الثالث ، ثم تناول دورها تاريخيا فى المنطقة العربية وهو الدور الذى أدى عبر عشرات التعرجات المتشابكة المعقدة الى أن تشن علينا حربا عسكرية مسلحة تستترت خلف نجمة اسرائيل .

أمريكا الاستعمارية ، هى القضية الرئيسية التى يتعين على الوطن العربى مواجهتها بشجاعة وموضوعية فى المستوى الثقافى بالمقدار نفسه الذى تتم به هذه المواجهة الآن فى المستوى السياسى . ان قطاعا عريضا من شعبنا قد فوجىء بهذه الحقيقة الجديدة تدخل حياته مؤخرا ، حقيقة أن أمريكا هى الاستعمار الجديد ، هى الامبراطورية العالمية التى تحاول حفنة من الاحتكاريين فرض سيطرتها على مقدرات شعوب الأرض قاطبة . فبالرغم من نضال الكثيرين من كتاب الأجيال المعاصرة ودور النشر العربية فى تجسيد « الخطر الامريكى » فان ظروفا عديدة حالت دون أن يثمر هذا النضال اثمارا حقيقيا فعالا . من هذه الظروف أن أجزاء لا يستهان بها من الأمة العربية على الصعيد الرسمى قد ارتبطت مصالحها بالولايات المتحدة أمدا طويلا من الزمن . من هذه الظروف أيضا أن المناضلين ضد الاستعمار الامريكى من المثقفين ودور النشر قد لاقوا من العنت والاضطهاد ما أضعف من امكانياتهم وحصر نفوذها فى أضيق الحدود . من هذه الظروف كذلك ان أمريكا لم تسفر عن وجهها كقيادة للاستعمار العالمى الا فى وقت متأخر نسبيا . وهناك ظروف أخرى كثيرة حالت دون وضوح هذه « الحقيقة » التى فاجأت قطاعات

واسعة من شعوبنا حتى بدت وكأنها « حقيقة جديدة » بينما توغل فظائع الولايات المتحدة الى القرن الماضى . ولعل تاريخها مع أمريكا اللاتينية والمكسيك مايزال ماثلا فى مخيلة شعوب أخرى عانت وتعانى من ويلات الاستعمار الامريكى فى مختلف مراحل تطوره . شعبنا العربى ، وهو يستقبل مايمكن أن نسميه مجازا بالحقيقة الجديدة فى حياته ، بأمس الحاجة الى معرفة أبعاد هذه « الامبراطورية » القائدة للثورة المضادة فى العالم .

ان الاجراءات الادارية والسياسية التى اتخذتها وقد تتخذها بعض الدول العربية ازاء مؤسسات الثقافة الامريكية ليست الا « مظهرا » خارجيا لما ينبغى على المثقفين أنفسهم أن يتخذوه من اجراءات . ولعله من أبشع النتائج أن نستطرد فى الاجراءات « المظهرية » دون أن نبدأ بالجوهر . فقد تقرر مثلا منع الأفلام الأمريكية والانجليزية من العرض داخل الجمهورية العربية المتحدة . وربما كانت هناك « حكمة اقتصادية » وراء هذا القرار ، ولكن الحكمة الثقافية تظل أبعد ماتكون عن فعالية هذا الاجراء ، كان من المفيد مثلا أن يمنع القرار دخول الأفلام والمجلات والكتب الاستعمارية أيا كانت جنسيتها أمريكية أو انجليزية أو ألمانية فنضرب عصفورين بحجر واحد .. نمنع الفيلم أو الكتاب الاستعمارى بسبب مضمونه الاستعمارى لا بسبب جنسيته الامريكية أو الانجليزية ، فلا شك أن هناك أفلاما ومجلات وكتبا تحمل أغلفتها أسماء وجنسيات أخرى وتحمل فى الوقت نفسه مضمونا عدائيا لكافة القيم البناءة لتقدمنا الاجتماعى . وعلى العكس من ذلك هناك أفلام ومجلات وكتب تحمل الجنسية الأمريكية والانجليزية وتحمل فى الوقت نفسه مضمونا تقدميا ثوريا .. فكيف نصدر قرارا يبلغ هذه الدرجة من الاطلاق والتعميم التى تمنع بلا حدود وتمنح بلا حدود ؟ ليس هناك من جواب سوى التسرع ومعالجة المظهر الخارجى وفقدان

الرؤية الواضحة للهدف • فنحن لسنا ضد « كل ماهو امريكى » أو « كل ماهو انجليزى » والا سقطنا فى هاوية العنصرية العمياء •• اننا بصراحة ووضوح « ضد الاستعمار الامريكى » ونحن أيضا مع كل ثقافة معادية للاستعمار بالرغم من انه فى الامكان أن تكون هذه الثقافة امريكية أو انجليزية • علينا أن نحذر الوقوع فى «رد الفعل» بدافع من تقصيرنا السابق ، أو بدافع «عقدة الذنب» عند فريق من مثقفينا الذين أسهموا بصورة أو بأخرى فى تدعيم مؤسسات الفكر الاستعمارى فى المنطقة العربية •

لا يتطلب الأمر من هذا الفريق الذى تعاون مع مؤسسات الثقافة الاستعمارية الا أن يتنحى عن أية مواقع قائدة لثقافتنا القومية ، اذ علينا أن نتصارح بأصالة وأن نتكاشف بصدق ، وحينئذ نقول ان أولئك الذين تعاونوا وأسهموا وشاركوا بأية صورة من الصور فى خدمة ثقافة الاستعمار لن يستطيعوا المضى فى هذه المهمة العاجلة « تصفية آثار العدوان » •• ان تنحيهم وحده هو الموقف الأمين الذى ييسر للمناضلين القيام بمهمتهم العاجلة • ولم يعد خافيا ان الارتباط الكامل بين هذا الفريق وأجهزة الاستعمار الثقافية كان يشكل « ظاهرة واضحة » فى عدائها للثقافة الوطنية والتقدمية كما كان يشكل « شبكة من المصالح المتبادلة » بين اطراف الغنيمة •• فلو اننا أعددنا كشفا بأسماء الذين تعاملوا مع فرانكلين والجامعة الامريكية ودور النشر المرتبطة بمكاتب الاستعلامات الامريكية •• سوف نجدها مجموعة محددة تحديدا دقيقا وكأنهم شركة مساهمة أو جمعية للمنتفعين •• بل ان بعضهم ممن كان يعمل فى جهات حكومية أو رسمية بادر بتسخير الجزء الذى يشرف عليه للأهداف التى يعمل لتحقيقها فى المؤسسات الاستعمارية ، كما انه بادر بتجنيد الطاقات الخادمة معه فى الدوائر الأجنبية المعادية ، جندها معه فى هذا الجزء أو ذاك الذى يشرف عليه فى جهة حكومية أو ادارة

رسمية . وطوال فترة زمنية غير قصيرة ظلت المطبوعات الصادرة عن فرانكلين أو الجامعة الامريكية أو مكتب الاستعلامات الامريكى ، ترادف المطبوعات الصادرة عن دور النشر الحكومية كما جاء فى بيان وزير ثقافة الجمهورية العربية بمؤتمر الكتاب العربى . ومعنى ذلك أن الكوادر العربية التى نمت بين أحضان الاستعمار هى نفسها الكوادر التى ناضلت بأموال الشعب العربى ضد أهداف هذا الشعب . فلا أقل من أن تتنحى هذه الوجوه التى لانتهمها بالعمالة ، ولا نطالبها بنقد ذاتى مفصل ، ولا نطلب اليها ان ترد الاموال التى نهبتها الى خزينة الشعب .. اننا نطلب اليها فحسب ان تخلى الطريق أمام المناضلين الحقيقيين ، ان تفسح لهم مجال العمل الجاد من أجل تصفية آثار العدوان الذى أسهمت فى التمهيد له . انها بذلك تكون قد أدت واجبا قوميا يغفر لها بعض خطاياها . أما « التأقلم » مع الظروف الجديدة و « التكيف » مع المناخ الجديد .. فلن نجنى منه سوى المزيد من الشعارات والضلال والخديعة . وهكذا تتحول هذه الكوادر القديمة فى عدائها الى أدوات تعوق مسارنا الثورى ، أى الى طابور خامس ما أحوج حياتنا الى التخلص من بقاياه .. فالعدوان قائم ، والمعركة مستمرة .

فى مقابل ذلك لا سبيل أمامنا لحظة واحدة ـ مثقفين وسلطات ـ الا أن نجند قوانا الفكرية المناضلة كلها ، أن نشحذ أسلحتنا الثقافية جميعها .. فمهما كانت هناك بلدان عربية ليس للدولة فيها دور مباشر فى توجيه الثقافة ، فان مسئولية الضمير العربى تتجاوز الأشكال الرسمية الى أعماق كل فرد فى هذه الأمة بحيث أن الناشر الخاص والمثقف الذى لا يخضع لتوجيه دولته انما تصدر مسئولية كل منهما من داخله وشعوره بما يحدق به وبأمته من خطر « الامبراطورية الامريكية » .. هناك اذن طاقات ناضلت الثقافة الاستعمارية طويلا ، بالمجهود الفردى تارة ، والمجهود الجماعى تارة أخرى ، بالمجهود الرسمى تارة ، والمجهود الذاتى تارة أخرى ..

لابد من حركة تجميع لهـذه الجهود التى حصلت خـلال نضالها على خبرات وتجارب نحن الان فى أشد الاحتياج الى التسلح بها ٠٠

وأخيرا فهناك « عقلية أمريكية » روجت لهـا هذه الأجهـزة الاستعمارية الجديدة طويلا خلال السـنوات التى قضتها تمرح بين ظهرانينا بلا حسـاب ٠ هذه العقلية التى تسـود على بعض برامج التدريب الادارى ، وتسـود أيضا على بعض جوانب من النشـاط الصحفى والاعلانى ، بل وتسود كذلك على كثير من تفاصيل حياتنا اليومية ٠ هذه العقلية الأمريكية التى بثتها فى مختلف نواحى زوايا بنائنا الثقـافى ، مؤسسات الفكر الاستعمارى ، علينا أن نخطط للخلاص منها فورا ٠ فالرواسب الذهنية والوجدانية والسلوكية التى تركتها هذه « العقلية » فى حياتنا أشبه ماتكون بطابور خامس غير مرئى يقوم بواجبه فى حماس العادة الراسخة والروتين الصامد٠ وهو أخطر من الطابور البشرى الذى يمكن التخلص منه بمجرد معرفة جنوده ، أى ان العقلية الامريكية هى السلاح غير المكشوف فى أيدى العدو ٠٠ وهكذا فقد نجح العدو بغير شك فى أن يترك الى جانب الكادر البشرى ثمار غرسه الفكرى فى صورة « بناء عقلى أمريكى » نما داخلنا يوما بعد يوم دون أن ندرك هول هذه الترسانة غير المسلحة الا مع قصف طائرات العدو الاسرائيلى وهى تعلن أن «أمريكا» قد نفد صبرها ، ولم يعد أمامها سوى العدوان المباشر ٠ لقد نجحت مخابراتها فى تدمير الكثير من النظم الثورية فى العـالم الثالث ، وبقيت المنطقة العربية بالرغم من كل ما تموج به من متناقضات ، منطقة منيعة على « انقلابات » الوكالة المركزية ٠٠ فلا مانع من تجربة العدوان الثقافى والفكرى تحت رايات مختلفة تنتصب حينا باسم فرانكلين وحينا باسم الجامعة الأمريكية ، وحينا باسم السينما أو المسرح أو الفنون الجميلة الأخرى ٠ هذه كلها التى شكلت ما ادعوه بالعقلية الأمريكية التى ينبغى ازالتها من الوجود الفكرى العربى جنبا الى جنب تصفية العدوان المسلح فى الأرض العربية ٠

٢ ـ النقطة الثانية بعد اكتشاف « امريكا الاستعمارية » على الصعيد العربى كواحد من المكاسب التى حصلت عليها هذه الأمة من الجولة العسكرية الخاسرة هو أن التجسيد الحقيقى لوحدة المصير العربى لم يعرفه المواطن العربى فى تاريخه كله كما عرفه خلال هذه الأيام · ولا أقصد بذلك « الشكل الوحدوى » الذى اتخذته اجراءات الحكومات والجيوش العربية أثناء المحنة · وانما أقصد « مضمون الوحدة » الذى تجلى فى دماء رجل الشارع وهى تغلى فى القاهرة وعمان وبغداد ودمشق والجزائر وفى جدة والخرطوم والجزائر وتونس وفى بيروت والدار البيضاء وصنعاء وفى كل مدينة وقرية وحى وشارع وزقاق عربى · اننى هنا أقولها صريحة الى أبعد الحدود ، وهى انه اذا كان عدوان ١٩٥٦ قد جعل الشعوب العربية تحس انها ليست بمعزل عما يحدث فى مصر ، فان عدوان ١٩٦٧ جعل الشعب المصرى يحس أنه ليس بمعزل عما يحدث فى مختلف ارجاء الأرض العربية · ولست مبالغا اذا قلت ان الشعور بوحدة الوطن العربى فكرا ومصيرا وحضارة لم يصل قط فيما مضى الى ما وصل اليه هذه الأيام من حدة وواقعية فى وقت واحد · لا ريب ان هذا الشعور كان موجودا فى الماضى ، ولكن شوائب كثيرة كانت تعلق به وتحول دونه والتطور فالازدهار · شوائب ليست الرومانسية الا عنصرا من عناصرها · كانت هناك العنصرية أحيانا جنبا الى جنب مع الرومانسية · وكانت هناك المطامع الطبقية أحيانا أخرى تقف فى صف واحد مع العنصرية التى قد تصل الى حدود الفاشية والنازية · ان ماحدث عام ١٩٦٧ وأعده كسبا حقيقيا بين أنقاض الجولة الدامية الخاسرة ، وأدرك الى ما غير حد بشاعة النكسة التى نجتازها ، هو أن « الأمة العربية » قد ولدت فى أعماق المواطن العربى ميلادا جديدا متطهرا من شوائب الماضى المعقد · ولدت « الأمة العربية » كيانا وضميرا جديدا خالصا من أدران التعصب والجهل والطائفية والمطامع ·

ولدت « الأمة العربية » وطنا كريما لا فضل فيه لمواطن على آخر الا بمقدار مايقدمه من تضحيات ٠٠

هذا الكسب ليس كسبا معنويا صرفا ٠٠ فقد تحولت « وحدة المصير كما قلت من كونها شعارا حماسيا أقرب الى الشعر الى حقيقة موضوعية تمثلها كل مواطن تمثلا تفصيليا واعيا ٠ وهذه « الوحدة المصيرية » هى الهدف الثانى — على الصعيد القومى — بعد « حقيقة أمريكا الاستعمارية » ، وهو الهدف الذى يستوجب منا كل يقظة واهتمام ، بل يستوجب اذا شئنا الدقة القيام بثورة جديدة على كافة مفاهيمنا السابقة على العدوان حول هذه القضية الخطيرة ٠ فكم من مفاهيم عنصرية للقومية العربية سادت على فكرنا الحديث خلال السنوات الماضية وباعدت بالقول والفعل بين القومية العربية وفريق هام من خيرة مفكرينا فى مصر وغيرها من أجزاء الوطن العربى ٠ وكم من خيالات رومانسية عن العروبة ازدحمت بها أقلام توهجت بالحماس الصادق ولكنها ضلت الطريق العلمى الموضوعى الواقعى الى العروبة الصادقة ٠٠ الى غير ذلك من الحواجز التى انتصبت جدرانا عالية بين فريق لا يستهان به من المثقفين والمواطنين الشرفاء والحقيقة الثورية الكامنة فى الوطن العربى الكبير ٠ ان اكتشاف «الأمة العربية» عند قطاعات واسعة من جماهيرنا خلال المحنة الأخيرة يعادل تماما «اكتشاف أمريكا الامبراطورية» عند قطاعات أخرى كانت تجهل أو لاتعى هذه « الحقيقة » ٠٠ ومن ثم يتعين علينا فى المستوى القومى أن نقوم بعدة واجبات عاجلة وأخرى بعيدة المدى ، من شأنها تقديم هذه الحقيقة من جديد تقديما يتصف بكل صفات الميلاد الجديد للأمة العربية ٠٠

ولعله من أولى المهام العاجلة « اعادة تقييم » المفاهيم السائدة للقومية العربية على ضوء الانتفاضة التاريخية التى لم يبطىء من تعاظمها مرارة النكسة ٠ ولا نهدف من اعادة التقييم أن تنصب

المشانق لمن أخطأوا ٠٠ وانما نقصد منها التخلص من كل ما هو سلبي وعقيم في مفاهيمنا السابقة ٠ ونقصد أيضا الى اقرار الاضافة الحية الخلاقة التى فازت بها الفكرة العربية فى أتون النكسة ٠ ونقصد أخيرا أن تتخلق المفاهيم الجديدة فى وعينا تخلفا ذاتيا وموضوعيا فى آن ٠

ومن المهام العاجلة أيضا « اعادة الثقة » الى جميع الأطراف فى الأمة العربية الواحدة ٠ اعادة الثقة الى من أخطأ فى حق هذه الأمة بترسيخه لمفاهيم وتصورات خاطئة عنهـا ٠ ودرس النكسة الاول فى هذا الصدد أن « الممارسة » وحدها هى القادرة على تصويب « النظرية » مهما غلت فى طيشها ٠ واعادة الثقة الى من كان بمعزل عن هذه الحقيقة وغائبا عن الوعى بها ٠ ودرس النكسة الثانى فى هذا الصدد ان أزمات الأمم الحادة هى أكبر مثير للوعى الغائب وأقوى المعاول فى تحطيم العزلة ٠ واعادة الثقة الى كل من كان يرى الأمور من زاوية صحيحة سليمة واضحة ، ثم خاب أمله فى خضم المحنة وشارفت أحلامه حافة اليأس ، ودرس النكسة الثالث فى هـــذا الصدد أن المحن تزيد الرؤية الواضحة وضوحا وأن اليـــأس من القيمة الصحيحة خليق بأن يردى المرء فى هاوية الانتحار العقلى ٠٠

ومن المهام العاجلة كذلك « اعـادة الحيـاة » الى الايجابيات العميقة الدلالة فى حياة هذه الأمة وتاريخها وحضارتها وتراثها ٠ فلقد كان من خيوط المؤامرة على وحدة هذه الأمة ما أشاعته من بلبلة وفرقة وانحرافات لا نهاية لها فى فهم التاريخ والحضارة والتراث ٠٠ فمن قائل ان تاريخنا يبدأ مع الفتح الاســـلامى فيقدم مفهوما اسلاميا لنشأة وتطور الأمة العربية ٠ ومن قائل ان قوميتنا بزغت مع وحدة النضال ضد الاستعمار الفرنسى والانجليزى فى أواخر القرن الماضى٠٠ومن قائل ان وحدتنا تقوم على أساس العرق الواحد منذ أيام الفراعنة والهجرات العربية الوافدة من الجنوب والشرق

والغرب ٠٠ ومن قائل ان عروبتنا هى اللغة الواحدة التى جمعتنا من المحيط الى الخليج ٠٠ ومن قائل بأن العامل الجغرافى هو أبرز العوامل فى وحدتنا القومية ٠٠ الى غير ذلك من تعريفات لا حصر لها لمعنى الأمة العربية ٠ وقد اختص كل تعريف بطبيعة الحال بمفهوم محدد لمعنى التراث والتاريخ والحضارة ٠٠ لهـــذا السبب تحكمت فى علاقاتنا « الروحية » بالأمة العربية الأهواء الذاتية المتعــارضة ، والميول السياسية المتباينة ٠٠ وغابت تماما « الحقيقة الموضوعية » التى يرجع الفضل ـ بكل أسف ـ للأزمة الأخيرة فى انبثاقها ٠ من هنا ضاعت علينا عبر سنوات طويلة تلك الجوانب الايجابيـــة المشرقة فى حياة هذه الأمة ٠ وهى الجوانب التى تتجاوز كل ماهو عرضى وطارىء لتتصل بأعمق مافينا من جوهرى وأصيل وباق ٠ وهى أيضا الجوانب التى تجمع ولا تفرق ، توحد ولا تفتت ٠ فاذا جاءنا من يقترح ترجمة « كتاب الموتى » ليس من حقنا أن نتهمـــه بالزيغ الشعوبى أو الانحراف الفرعونى ، ومن جاءنا يقترح بعث تراث الغزالى ليس من حقنا أن نتهمه بالرجعيـــة أو الجمود ، ومن جاءنا بدراسة عن الخوارج أو المعتزلة أو القرامطة ليس من حقنــــا أن نتهمه بالالحاد والزندقة وأحيانا بالشيوعية ٠ ليس من حقنا أن نتقول بشىء من هذه الاتهامات ، لأن كتاب الموتى وحضارة سومر وتراث الفيزيقيين وجميع الحركات الفكرية فى المســيحية والاسلام بهذه المنطقة ٠٠ جميعها تشكل « تراث » هذه الأمة و « حضارة » هذه الأمة و « تاريخ » هذه الأمة ٠

ان أبشع معالم العدوان الثقافى على أمتنا أنه شجع الاتجاهات المعادية للقومية العربية على أساس اقليمى باسم الحضارة المستقلة والتراث الخاص ، كما شجع فى نفس الوقت الاتجاهات النــاطقة بلسان القومية العربية على أساس عرقى يؤدى سياسيا الى نماذج متهرئة للفاشية والنازية ٠ لهـذا السبب كان من ألزم واجباتنا

العاجلة التى تمليها النكسة املاء عميقا ، أن نقصى عن الحلبة الفكرية كلا الاتجاهين المتطرفين اللذين يلتقيان - ولا مجال للعجب - فى بؤرة واحدة هى العنصرية : أخطر الشباك التى ينصبها الاستعمار الجديد والصهيونية العالمية · ولنتجه مباشرة الى هذا المفهوم الايجابى البناء الذى يرى هذه الأمة فى اطار « وحدة المصير » جنبا الى جنب مع الخصائص النوعية التى يتسم بها كل قطر عربى من خلال ذاتيته المشروعة ··

٣ - يلى هاتين النقطتين مباشرة ما أسميه « بالوحدة الثقافية » فى العالم العربى · وهنا قد يقاطعنى ألف لسان ولسان فى قول واحد : ياسيدى ، أما الوحدة الثقافية فهى الوحدة الوحيدة المتحققة بالفعل ، أكثر من الوحدة الاقتصادية أو السياسية الخارجية أو القانونية ·· الى غير ذلك من « أشكال وحدوية » يموج بها العالم العربى تحت عناوين مختلفة : « اتحاد العمال العرب » ، « اتحاد المحامين العرب » ، « اتحاد الصحفيين العرب » · الوحدة الثقافية تراها بوضوح على أغلفة المجلات الأدبية حيث تلتقى الأقلام المصرية باللبنانية بالعراقية بالسودانية · تراها بوضوح فى مؤتمرات الأدباء العرب · تراها بوضوح فى انتشار المعلمين المصريين بالمدارس العربية · أما زلت ترغب فى وحدة ثقافية عربية متحققة بالفعل ؟ وأسمح لنفسى أن أقول : نعم ·· أرغب فى وحدة ثقافية أعتقد - وأرجو أن أكون مخطئا - انها ليست متحققة الى الآن · حقا ، لدينا ثقافات ناطقة بالعربية ، ولكن ليست لدينا ثقافة عربية ، بالمعنى العميق الشامل الذى يقف جدارا صلبا فى وجه الأجهزة الفكرية والثقافية للاستعمار الجديد ·

لا يكفى أبدا أن أكتب فى لبنان ، ويكتب غيرى فى دمشق ، وثالث فى بغداد ، حتى نقول ان ثمة تفاعلا ثقافيا حقيقيا فى الفكر العربى المعاصر · بل ولا يكفى أن يقوم صراع بين أديب من القاهرة

وآخر من الدار البيضاء حول قصيدة من الشعر أو قصة قصـــيرة أو غير ذلك من ألوان الأدب وقضايا الثقافة حتى أقول ان هناك تفاعلا صحيا عميقا بين المثقفين والأدباء والمفكرين العرب ٠ بل ان توحيد برامج الدراسة والتعليم فى البلدان العربية لا يقوم بهذا الدور الخطير لأنه لابد من تعديل هذه البرامج قبل توحيدها حتى تستطيع القيام بدورها التمهيدى اللازم فى قيام ثقافة عربية واحدة ٠ لقد تمكن الاستعمار القديم من أن يعزل اتجاهات الثقافة العربية عن بعضها البعض عزلا حادا ، وجاء الاستعمار الجديد فدعم هذه العزلة بوسائل شديدة الخبث والدهاء ٠ فنحن نكاد لا نعرف شيئا عن « طريقنا الخاص » الذى سلكته الثقافة العربية فى مسارها الطويل وسط زحام الثقافات الوافدة والمستوردة ٠ ونحن الى الآن نكاد لا نعرف شيئا عن « التقاليد العربية » فى الثقافة التى رســـخت يوما بعد يوم على مر العصور والأجيـــال ٠٠ ونحن الى الآن نكاد لا نعرف صورة موضوعية مفصلة لتطور كل ثقافة عربية على حدة حتى نتمثل عناصر الوحدة بين ثقافاتنا المختلفة فندعمها ، كما نتمثل عناصر الفرقة كى نعمل على ازالتها ، ونتمثل الخصائص النوعية المستقلة التى تحفظ لكل ثقافة ذاتيتها المشروعة فنأخذ فى تحديد معالمها ٠

ان الكاتب المصرى قد تبهره قصة قادمة من بيروت أو قصيدة من بغداد ، ولكن انفعاله يتوقف عند هذه الحدود الاستكاتيكية مالم يتعرف على « الأرض الأم » التى أثمرت هذا العمل الفنى ٠٠ ومن ثم ينتقل من عتبات « الانبهار » الى « التفاعل » الحى العميق ٠ ولكن هذا التفاعل لن يتم بصورة علمية صادقة الا اذا بدأنا فى صرامة وموضوعية باكتشاف ذاتنا الثقافية من جذورها وشعيراتها الدقيقة٠ واكتشاف الذات لن يتم الا بمرصد أمين وتحليل شامل لتاريخنا الفكرى والثقافى ٠٠ فحتى الآن تخلو المكتبة العربية خلوا شبه تام

من المراجع الأمينة لتاريخنا الثقافى ، وبخاصة المراجع الخالصة من شوائب المنـــاهج المعـــادية أصلا لفكرنا القـومى ٠ مناهج بعض المستشرقين ، ومناهج بعض الجامعات الأجنبيـة ٠ ان اكتشـــاف الذات الثقافية للأمة العربية هو السبيل الوحيد الى معرفة « طريقنا الخاص » الذى سلكته ثقافتنا القومية و « التقاليد العربية » التى حفرها الوجدان العربى والعقل العـربى على صفحة وجودنا ٠ ان اكتشاف الذات الثقافية للأمة العربية أيضا هو الخطوة الأولى للوحدة الثقافية العربية الحقيقية ٠ والوحدة الثقافية العربية هى الحائط الصلب المنيع فى وجه الاستعمار الثقافى الأمريكى ٠٠ انها تصوغ الحد الأدنى من « الوحدة الفكرية » القادرة على صـــياغة الارادة الحديدية للوطن العربى فى جولته القادمة مع الامبريالية والاستعمار الجديد ٠

هذه فيما أعتقد هى النقاط الثلاث الرئيسية التى يتعين علينا التوقف البصير عندها على الصعيد العربى العام فى رحلة نضالنا المرير القائم والقادم ٠ بقيت المهام التفصيلية التى تتصل بالمواصفات المحلية لكل قطر عربى على حدة ٠ فالبلدان العربية التى تخضع فيها الثقافة لاشراف وتوجيه الدولة تســـهل مهمتها وتعسر فى آن ٠ والبلدان التى تستقل فيها مؤسسات الثقافة الوطنية استقلالا تاما تتخذ مسارا مختلفا بعض الشىء فى توليها لمسئولياتها ٠ والبلدان التى تكاد تخلو من أية مؤسسات للفكر والثقافة ، تحتاج الى تخطيط جذرى وشامل يغير من وضعها فى نقطة الصفر ٠٠

أما الأقطار التى تخضع فيها أدوات التعبير لاشراف الدولة وتوجيهها ، وأتخذ منها هنا الجمهورية العربية المتحدة مثالا محددا ، فعليها أن تعيد النظر فى بنائها الثقافى على ضوء العـــــدوان فى مقدماته وأحداثه ونتائجه القريبة والبعيدة ٠ وهنـــا أكرر القول بأنى أعنى العدوان الثقافى والعدوان المسلح على السواء فلســـت أتصور أن وزارة الثقافة المصرية التى بادرت منذ حوالى عام بتغيير

« قطبى » ان جاز التعبير عن اقصاء بعض كبار الموظفين واحلال آخرين يتمتعون بثقة القوى الوطنية والتقدمية ، لست أتصور أن وزارة الثقافة باقتصارها على هذا التغيير القطبى تستطيع أن ترتفع الى مستوى الأحداث . واذا كنت أضع فى اعتبارى الآن أن دار الكاتب العربى قد تمكنت خلال المحنة أن تصدر عشرين كتابا فى عشرة أيام فان هذا « الانجاز العملى » لم يتم بواسطة الجهاز الرئيسى والرسمى للدار ، وانما قد تم بالمبادرات الفردية لمجموعة قليلة العدد من موظفى المؤسسة الذين انتدبوا خصيصا للقيام بهذه المهمة العاجلة . أما موظفو الشركة الذين يتقاضون حوالى خمسين ألفا من الجنيهات شهريا ، فان معظمهم من الكادر الرئيسى للدار القومية للطباعة التى أصدرت كتبا تصف اسرائيل بأنها واحة الاشتراكية وأن أمريكا جنة الديمقراطية على النحو الذى طالعنا به بيان الدكتور ثروت عكاشة منذ شهور . ولقد عمدت الى ذكر الرقم المهول من ألوف الجنيهات التى تدفع لموظفى هذه الشركة حتى نضع أيدينا على المعوقات الحقيقية التى تحول دون بنائها الثقافى من جديد بناء سليما . فهذه الألوف من الجنيهات تعنى أولا أن « نزيفا لا يبطىء السير » فى احدى منشآتنا الثقافية الكبرى يهددها بالتوقف التام . ويعنى ثانيا أن « زحاما الى حد الاختناق » يعرقل كل ماتبنيه الشركة ويهددها بالموت النهائى . وبين الألوف المؤلفة من أموال الشعب ، والزحام البشرى للطاقات المعطلة ، لن تستطيع المبادرات الفردية للكفاءات الفنية والفكرية أن تحول دون الانهيار .. اذ لا يكفى أن نضع كفاءة ما فى القمة ونترك البناء كله فسادا ترعى فيه حشرات الاهمال والتقصير والذمم الخربة والانحرافات السياسية والأخطاء الفادحة !! ان الحل العاجل لهذه المشكلة الخطيرة هو تحويل الأعداد الغفيرة التى تحمل مؤهلاتها الجامعية عن كلية الآداب الى وزارة التربية والتعليم ، والابقاء فحسب على الطاقات الفنية والفكرية القادرة على حمل العبء والمسئولية .

بذلك تتخلص الشركة من الأعبـــاء المالية الضاغطة على ميزانيتها لدرجة الانفجار ، وبذلك أيضا يحدث التجانس بين القمة والقاعدة وتحدث الوحدة بين الهدف والوسائل ٠

وما يقال عن دار الـكاتب العربى يقال أيضا عن مؤسســـة السينما ، كما يقال عن مؤسسة المسرح ، وادارة الثقافة الجماهيرية ٠٠ وان اختلفت الظروف من مؤسسة الى أخرى ، فالسينما مثـلا ليست مشكلاتها الآن أنها لا تجد قصصا وطنية ، كما أن المسرح ليست مشكلته أنه لا يجد نصوصا من أدب المقاومة ٠ ان مؤسسة السينما وقد احتلت قيادتها كفاءات وطنية وتقدمية ، فان مشكلتها تكمن فى الطرف الآخر الذى تتعـــامل معه من مؤلفين وممثلين ومخرجين ٠ كذلك الأمـــر فى مؤسسة المسرح ، فقـــد تسـلمت قيادتها كفاءات لا تقل وطنية وتقدمية ، ولكنها تتعامل مع نصوص تصل أحيانا الى مستوى حافة الثورة المضادة من الناحية السياسية، وتصل أحيانا أخرى الى درجة شديدة الهبوط من الناحية الفنية ٠ والثقافة الجماهيرية لا تبدأ من الجماهير ، وادارة المجلات تخصص احداها فى خدمة أفكار متخلفة وأحيانا معادية ، وتجمد أخرى فى أطر محنطة ٠ ان اعادة بنائنا الثقافى تستلزم حقا اعادة نظر سريعة فى كل قوانا وقواعدنا وبرامجنا ٠ ووزارة الثقافة ــ كما يحق لنا أن نفترض ــ هى قلعة العمل الرسمى المنظم فى النضال الفكرى الذى تخوضه جماهيرنا اليوم من أجل تصفية آثار العدوان ٠

غير أن القلعة الثانية فى معركة اليوم والتى ينبغى أن تتصدر مكان القيادة هى التنظيم السياسى ، ولا ينبغى على الاطلاق أن نكتفى بما تقوم به أمانة الدعوة والفكر فى الاتحاد الاشتراكى من اصدار النشرات الثورية ٠٠ فان الواجب العاجل والملح فى المرحلة الراهنة أن يحدد التنظيم السياسى فى وضوح تفصيلى دقيق الخط السياسى

للبلاد سواء فى اطاره الاستراتيجى أو فى مرحلته التكتيكية ٠٠ ليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك خط سياسى محدد ، وانما أقصد أن العدوان الثلاثى الأخير سوف ينعكس بقوة النكسة على تفكير المواطنين وسلوكهم ٠ واذا كانت الجماهير العظيمة قد برهنت مساء ٩ من يونيو ١٩٦٧ على أنها ما تزال صامدة فى خطها السياسى الثورى ، فان هذا لا يعنى على الاطلاق أن المشكلة قد انتهت ٠٠ فان العدو لا يصمت ليل نهار عن اشاعة البلبلة فى صفوف شعبنا متسلحا فى معركته الجديدة بأكثر أدوات التشتيت الفكرى تخفيا والتواء ٠ والمثل القريب فى هذا الصدد هو الصورة المضللة التى روجتها دعايات الاستعمار عن موقف الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى عامة ٠٠ فلم يكن الهدف من وراء هذه الصورة الا اشاعة فقدان الأمل فى أصدقائنا ، وتوجيه الاعتماد كل الاعتماد على أعدائنا ٠ هذا المثل الصارخ يوضح الى أى حد يمكن للعدو أن يهز خطنا السياسى ويبعثر قوانا الايديولوجية ويشتت بناءنا الفكرى ٠٠ لهذا السبب ، أقول : ان المهمة العاجلة أمام التنظيم السياسى هى « تحديد الايديولوجية الثورية » لشعبنا فى خط سياسى واضح ، وبرنامج تفصيلى دقيق للعمل ٠٠

وهنا يأتى دور أجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وتليفزيون ٠ فلقد امتد العدوان الثقافى الاستعمارى على طول الجبهة الفكرية المصرية حتى تأثرت أجهزتنا الاعلامية فى صميم تخطيطها تأثرا ضاريا ٠٠ فكم من أفلام مكتب الاستعلامات الأمريكى المهداه مجانا قد عرفت طريقها الى قنوات التليفزيون المصرى ، وأفئدة وعقول المصريين ٠ وكم من البرامج الأمريكية التى احتذيت فى تقديم المواد المختلفة من مسلسلات بوليسية وجنسية أسهمت بدورها فى تخريب الوجدان المصرى والذوق المصرى ٠٠ الى عديد من المخازى التى حرفت بعض برامج الاذاعة وبعض الصحف من

كونها أداة توعية فى خدمة الشعب الى خزينة سخية للنهب العلنى «المشروع» وسرقة وعى المواطنين ٠ ولعلها صحيفة محددة ، أو محطة اذاعية محددة ، هى التى أشاعت فى صفوف الجماهير أثناء المعركة الأخيرة وبعدها مابلبل أفكار الكثيرين ٠٠

أما دور النشر التابعة للقطاع الخاص فى مصر والبلدان العربية الأخرى ، فان مسئولياتها الرئيسية هى تصفية حساباتها نهائيا مع المؤسسات الأجنبية المعادية ٠ ويلى ذلك أن تعمل بغير عزلة عن القيادات الثقافية المناضلة سواء منها من اعتلى مقعدا شرعيا أو من بادر مبادرة فردية مخلصة بوازع من ضميره الحر ٠ عليها كذلك أن تخطط لنفسها وفقا لاحتياجات المرحلة الخطيرة التى نعيشها ولا تترك نفسها لعشوائية الشعار التقليدى « أكبر ربح ممكن فى أقصر وقت ممكن » ٠٠ ان تنسيق العمل بين القطاع الخاص والقطاع العام ، بين المنابر الرسمية والمنابر غير الرسمية من أهم الواجبات التى يجب أن تشارك فيها جميع الأطراف بأنصبة عادلة ٠٠

أما البلدان التى تكاد تخلو من مؤسسات ثقافية على الاطلاق ، وهذه تعرضت للعدوان الثقافى مثل غيرها ، بل وأكثر لخلو أرضها من الدفاع الذاتى ٠٠ فانها مطالبة اليوم أكثر من أى وقت مضى بأن تبدأ بناءها الثقافى الوطنى المستقل ولا تعتمد بشــكل مطلق على امدادات الدول الشقيقة بمجلاتها وأقلامها ٠ ان هذه الامدادات والأقلام تستطيع أن تقدم خدمة عظمى لهذه البلدان اذا شاركت فى « بناء » ثقــافة وطنية لها ، فلا تعــود جماهيرها مجرد قراء مستهلكين وكتاب مهاجرين ٠٠ بل تصبح أرضها قاعدة لبناء ثقافى راسخ يتفاعل مع بقية الأبنية والثقــافات ، ولكنه يتدعم ويقوى أساسه الداخلى والذاتى ، فوطن بلا بناء ثقافى هو أكثر الأوطان عرضة للسقوط ٠

اذا أمكننا أن نتحرر ونحـــرر ذواتنا المتفردة بخصـــائصها النوعية المستقلة ، فاننا سنحرر فى نفس الوقت ذاتنا الـــكبرى الجامعة لأروع ما فينا من ايجابيات والموحدة لأعمــق ما فينا من جوهريات ٠٠ وهذه الذات العربية هى التى ستقف كالطود فى وجه أى عدوان جديد ، وهى نفسها التى ستطهر الأرض العربية من أدران العدوان القريب والبعيد ٠٠ علينا فحسب أن ندرك فى كل خطوة نخطوها ان العدوان قائم وان المعركة مستمرة ٠٠ وبالتـــالى فان « تصفية آثار العدوان » فى كافة مجالات حياتنا ــ والثقافية من أهمها ــ هى أخطر المهام العاجلة فى الوقت الراهن ٠٠

فهرس

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة